الخِرتي

الخِرتي

الكاتب: محمد إبراهيم طعيمة

- **رقم الإيداع:** ٢٠٢٠/٣٢٦١٩
- **الترقيم الدولي:** 978-977-7761-01-3.
- **تصميم الغلاف:** يوسف السيد
- **تدقيق لغوي:** أحمد ناجح
- **تنسيق داخلي:** مؤسسة الشريف للكتاب
- **الطبعة الأولى ٢٠٢٠**

الناشر: نبوغ للنشر والتوزيع

http://www.nebogh.com/

المدير العام: مروة المصري

darnebogh@gmail.com

٠١١٠٠٥٢٨٥٢٢

جميع الحقوق محفوظة ©

الخِرتي

وفي مصر شاهدت أشياء كثيرة ولكني لم أنطق

هيرودوت

رواية

محمد إبراهيم طعيمة

دار نبوغ للنشر والتوزيع
by CIRCALE

عندما قابلت الخِرتي

كانت صدمة كبيرة لي عندما قابلت ذلك الرجل الذي لديه استعداد لأن يبيع أي شيء، بداية من نفسه مروراً بزوجته وأولاده وأي شيء من الممكن أن يخطر على بالك، في مقابل بعض الورقات الخضراء من فئة المائة دولار، أو بأكلة هنية بها من اللحوم ما لذ وطاب، أو بسهرة ماجنة بها من الخمور والمخدرات ما لا عين رأت ولا خطر على رأسك.

ووجدتني أجلس مع نفسي أحّدثها.. ألهذه الدرجة ضاعت كل القيم والأخلاق من هذا المجتمع، ألهذه الدرجة فقد الناس إنسانيتهم وأصبح المال هو المتحكم الرئيسي في كافة تفاصيل حياتهم، ألهذه الدرجة أصبحت الكرامة وعزة النفس والأصول والأخلاق والتربية هي أرخص ما فينا، ألهذه الدرجة هانت النفس التي كرمها الله على بعض البشر لدرجة أنهم يبيعونها بالرخيص.. وفي النهاية حمدت الله أن عافاني مما ابتلى به غيري.

أعلم أن من بينكم الآن من سيقول ما هذه المثالية التي تتحدث عنها، فصعوبة الحياة والضغوط الكثيرة التي تزايدت خاصة في السنوات الماضية جعلت كل شيء يتغير ويتبدل، ولكن أعذروني فهذا الكلام

غير دقيق فقد تربيت في بيت والدي في تلك القرية البعيدة عن العاصمة بصخبها وزحمتها وإنسانيتها المفقودة.. تربيت وعشت أيامي الأولى هناك وسط إناس يعيشون فقط بكرامتهم، وكثير منهم قد لا يملك سوى قوت يومه فقط، ولكنهم أبداً لم يبيعوا كرامتهم ولم يفرطوا في إنسانيتهم، ولعلك تذكر أن الله وصفهم في الآية القرآنية العظيمة "تحسبهم أغنياء من التعفف".

وإذا كانت صعوبة الحياة كما يدعي البعض قد غيرت في سلوكيات الناس، فتلك الصعوبة نفسها جعلت بعض المتمسكين بكرامتهم وعزة أنفسهم يبحثون عن عمل أضافي يحسنون به أوضاعهم المعيشية حتى لا يخضعون لذل الحاجة أو السؤال، وهي نفسها من جعلت آخرين يبيعون أنفسهم ولو بالرخيص.

يا سادة الكرامة وعزة النفس والأصول أشياء لا تباع ولا تشترى ولو بكنوز الدنيا كلها .. فتحية لكل رجل شريف حافظ على نفسه وأهله وكرامته ولم يفرط فيهم أو يغض الطرف عن أي شيء من أجل المال، الذي سيذهب على متاع الدنيا الفانية.

محمد إبراهيم طعيمة

القاهرة – سبتمبر ٢٠٢٠

(١)

فكرت كثيراً أن أستغل سيارتي الملاكي، وأجعلها تدر عليّ دخل.. أي دخل إضافي يساعد في مصاريف الحياة وأعبائها التي تزايدت كثيراً خلال الفترة الماضية، وبخاصة بعدما أصرت زوجتي على إلحاق ابني الكبير بإحدى المدارس الخاصة ذات المصروفات العالية، ولا أعرف حتى الآن رغم مرور عام دراسي كامل ما الفرق بين هذه المدرسة والمدارس الحكومية التي تعلمنا فيها.. هل هي حصص الموسيقى، أم دراسة الحساب والعلوم باللغة الانجليزية، أم حمام السباحة الذي يسمح للطلاب بنزوله مرة كل أسبوع، فالتعليم هو التعليم والطفل النبيه سينجح ويتفوق في أي مكان حتى لو كانت مدرسة حكومة.

وها هي مدارس الحكومة المجانية خرّجتني وأنا المحامي الشهير الذي يقف له الجميع في الشارع والمحكمة وفي كل مكان توقيراً واحتراماً له، وربماً خوفاً وإجلالاً منه ومن معارفه وعلاقاته واتصالاته، فالجميع هنا يعتبرونني شخصية عامة بل هامة ومؤثرة، فلا يجرؤ أحد مثلاً أن يناديني باسمي مجرداً من صفتي، أو كما ينادوا بعضهم البعض أبو حسن وأبو محمد وهذه المسميات العجيبة، فأنا رجل ذو وضعية خاصة إذ لابد وأن يكون اسمي مصحوباً بلقب سيادة المستشار، بل إن بعض سكان الشارع يعتبرونني أهم من فريد الديب محامي

المشاهير نفسه، وهذا راجع بالطبع إلى خدماتي الجليلة التي أقدمها لهم ولأبنائهم.

حكاية المستشار هذه لم تأت من فراغ، ولم أطلقها على نفسي مثل عدد كبير من محامي هذا الزمان الأغبر الذين يكتبون على صفحاتهم في الفيسبوك المستشار فلان فلاني وهو في الأساس لا علاقة له بالقانون وكل خبرته أنه حصل على دورة تدريبية في التحكيم الدولي ثم يجاملونه ويخرجون له كارنيه مستشار، وهذه الفئة دمرت سمعة المستشارين، وأعدكم بعد أن انتهي من قصتي وحكايتي أن أبحث عن حل قانوني لهم يريحنا منهم ومما فعلوه في المهنة.

المهم وحتى لا يتشعب الحوار، فأنا بالفعل مستشار، أو بمعنى أدق كنت سأكون مستشاراً، وسأحكي لكم القصة في عجالة.. فقد تقدمت بأوراقي للالتحاق بسلك النيابة العامة والقضاء، بعد تخرجي من كلية الحقوق بتقدير عام جيد جداً، وملئني التفاؤل والأمل، فها هو الحلم يتحقق، وسأصبح وكيل نيابة ثم قاضي أحكم بين الناس بالحق والعدل كما كان يحلم والدي رحمه الله.

تابعت موعد التقديم للعمل في النيابة العامة، وسحبت الملف وذهبت إلى المقابلة الشخصية الأولى التي عُقدت بدار القضاء العالي، ونجحت في الاختبارات التي أجراها التفتيش القضائي، واجتزت

التحريات الأمنية سواء تلك التي ذهبت فيها لمقر مباحث أمن الدولة، أو الخاصة بالأمن العام وذهبت فيها لقسم الطالبية وجلست مع ضابط المباحث الذي وجه لي بعض الأسئلة عن أقاربي من الدرجة الأولى حتى الرابعة، وطبيعة أعمالهم، والحمد لله نجحت فيهم جميعاً.

وجاء يوم لقاء اللجنة السباعية أو كما يسمونه كشف الهيئة، والذي كان على غير العادة أسهل من كل الاختبارات التي مررت بها في حياتي، رغم ما يتردد من أنه الكشف الأصعب والأهم لأنه يتحدد فيه مصيرك، ولكن لم أشعر بكل هذا الكلام الذي يتردد ويشاع ويتسبب في الغالب في زيادة حدة التوتر والقلق لدى المتقدم.

جهّزت كشف العائلة أو كما يطلقون عليه القيد العائلي ومعه شهادات ميلاد وصور البطاقات الشخصية لكل عائلتي من الدرجة الأولى حتى الرابعة، بالإضافة لبيان نجاح لوالدي رحمه الله ووالدتي من الإدارة التعليمية ولا أعلم ما سر إصرارهم على بيان نجاح لوالدي رغم أنه ذهب لدنيا غير الدنيا وهناك لجان أخرى هي من تقوم بحسابه واختباره.

المهم أني فور انتهائي من تجهيز كافة الأوراق المطلوبة، ووضعتها في ملف أصفر، قمت بتجهيز البدلة السوداء التي حضرت بها زفاف

سماح ابنة عمتي قبل عدة أشهر، ولم أضعها على جسدي من وقتها وهذه قصة أخرى إن سنحت لي الظروف سأحكيها لكم.

نزلت إلى وسط البلد حيث محلات البدل والحياة الصاخبة المليئة بأضواء المحلات التي لا تغلق أبوابها قبل الفجر، واشتريت جرافتة سوداء جديدة، لتلائم الشياكة، واستيقظت مبكراً.. صليت الفجر في جماعة بالمسجد المجاور، ثم عدت أقرأ بعض سور القرآن الكريم وأردد بعض الأدعية والأذكار، قبل أن أرتدي ملابسي وأقم بتمليع الحذاء، والذهاب إلى هناك قبل أن تدق الساعة التاسعة صباحاً.

ملحوظة صغيرة.. ما أحكيه الآن أخذ مني وقت ومجهود كبيرة سواء في التجهيز أو حتى الحكي لكم، فأنا لا أرغب في سرد الأحداث بالتفصيل الممثل حتى لا تشعرون بالملل أو الزهق، ولأني كمحامي ناجح ومحترف أقدر جيداً قيمة الكلام متى يخرج من فمي وقيمة وقتكم الثمين الذي لا أريد أن أضيعه في بعض التفاصيل التي قد لا تفيدكم في شيء.

أعود لأستكمل ما حدث في هذا اليوم الذي غير مجرى حياتي، فكما قلت لكم أني صليت الفجر في المسجد وعدت للشقة وقرأت بعض آيات القرآن وبعض الأذكار وارتديت ملابسي وتأنقت ثم وضعت من زجاجة الرائحة التي اشتريتها من وسط البلد وقت أن كنت أشتري

الجرافتة السوداء، ولكني لم أشأ أن أحكي لكم عنها وعن الرجل الذي اشتريت منه الزجاجة وكان فضولياً بشكل غريب للغاية لدرجة أنه استغرب أني سأشتري زجاجة برفان رجالي وكان يصر على أن أشتريها حريمي.. يبدو أن كان يعتقد أني أريد أن أعطيها لحبيبتي، ولكنه لا يعلم أني وقتها كنت أعيش على ذكرى الحبايب الذين رحلوا وتركوني بمفردي أعاني تحطيم القلب.

أعتذر لكم مرة ثانية وسأحاول ألا أدخل في تفاصيل جانبية حتى لا أشتت تركيزكم.. المهم أني نزلت من الشقة وأنا أردد آية الكرسي كما أوصتني والدتي، ورفضت أن أركب مترو الأنفاق رغم أن محطة الإسعاف أمام المحكمة التي سيكون بها الامتحان مباشرة، ولكني قررت أن أضحي بثمن التاكسي حتى لا يفسد الزحام أناقتي، أو يهان حذائي اللامع بعد أن يضغط عليه أحدهم مما ينزلون من بيوتهم متعجلين حتى يلحقون دفتر الحضور والانصراف، فشياكتي وأناقتي مهمة في يوم كهذا وبالتأكيد سيتوقف عليها جزء كبير من نجاحي.

وقف التاكسي أمام دار القضاء العالي، ونزلت لأفاجئ أمامي بمبنى ضخم، ذو أعمدة شاهقة، يتوسطهم دائرة عليها ميزان وكتب تحتها بخط عربي جميل العدل أساس الملك، ولا أعرف حتى الآن سر هذا الإحساس الغريب الذي انتابني وأنا أقف أمام المبنى رغم أنها ليست المرة الأولى التي أشاهده فيها، فكثيراً ما مررت عليه أثناء تسكعي مع

أصدقائي في شوارع وسط البلد، وكان آخرهم ليلة أمس وأنا أشتري الجرافتة وزجاجة الرائحة، ولكن هذه المرة كان إحساسي به مختلف وغريب، ولا أخفيكم سراً أن بعض مشاعر الرهبة والقشعريرة قد انتابتني بل وسيطرت عليّ، فهل يحدث ألا يتم قبولي، ولكن تلك الرهبة سرعان ما ذهبت بعدما لمحت قوله سبحانه وتعالى "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"، مكتوبة بحروف بارزة على الجدران.

دخلت المحكمة، وصعدت إلى مقر الاختبارات، وانتظرت دوري، غير أن الوقت قد طال.. مرت الساعة الأولى والثانية والثالثة، واعذروني الكلمات لا تسعفني لأصف لكم مرارة الانتظار والدقائق التي مرت عليا وكأنها دهر، فرغم أن أحداً لم يبلغني بشيء ولكنه الخوف فهذا مستقبلي وحلمي وحلم والدي الذي لابد وأن أحققه له مهما كلفني ذلك.

الساعة اقتربت من الثانية عشر ظهراً ولم يناد الموظف على اسمي، وبدأت الظنون والهواجس تسيطر عليّ، تُرى هل تم استبعادي؟! أم تقدم أحد الكارهين بشكوى ضدي؟! ولكن من هذا الذي يكرهني ويمكن أن يكون قد تقدم بشكوى ضدي فأنا والحمد لله شخصية طيبة ومحبوبة من الجميع ولم أدخل في أي مشكلة مهما كانت مع أي شخص، وهكذا كان والدي رحمه الله الذي أضاع آخر سنوات عمره

في حل مشاكل الناس لدرجة أنه كان أحياناً يدفع أموالاً من جيبه الخاص لحل مشكلة بين اثنين.

بدأت الأسئلة تتسارع في رأسي، وكأنها كلاب مسعورة تجري وراء شخص يمشي بعد منتصف الليل في أحد الشوارع المظلمة، وبدأ القلق الذي حرصت على ابعاده عن ذهني يسيطر عليّ، ولكن لا.. لا يمكن أن يسيطر عليّ، وأقنعت نفسي بالمثل الشعبي القائل "كل تأخيرة وفيها خيرة"، وحرصت على إبعاد كل القلق والخوف والظنون عن ذهني، بحيث ألا تؤثر على هدوئي، وتجعلني أتوتر، وبدأت أردد لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بعد الثانية عشر بنصف ساعة خرج الموظف ونظر في الكشف ونادى بأعلى صوته: الأستاذ شريف محمد عبدالمقصود، فابتسمت وشعرت أن روحي قد سحبت مني فتغير لوني إلى الأصفر ثم إلى الأزرق قبل أن تعود إليّ بشكل سريع جعل دقات قلبي تتزايد وتتسارع، ولكني أخذت نفساً عميقاً رد الحياة بداخلي، وطلبت من نفسي الهدوء والسكينة.

رسمت ضحكة وقورة على وجهي وتحركت في اتجاهه، وما إن دخلت القاعة حتى شعرت بالرهبة من المنظر وشكل اللجنة وهي تجلس أمامي وبها عدد من كبار المستشارين، الذين أعرف بعضهم وأرى صورهم على صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون، وهو ما زاد من

رهبتي وخوفي إلا أنني ذكرت نفسي بأن نصف النجاح في هدوئي فقط، والنصف الآخر باقي الاختبار.

شرعت اللجنة السباعية في توجيه عدد كبير من الأسئلة لي عن حياتي وسلوكياتي، وكيف سأتصرف لو فوجئت بوالدي أو والدتي أمامي في قضية، وأجبتهم بالصدق، أن القانون لابد أن ينفذ على الجميع وذكرتهم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، وكنت واضحاً في كل ردودي تجاه هذا السؤال، بالإضافة لبعض الأسئلة الأخرى التي لم أجد لها مبرراً في تعييني وكيلاً للنيابة مثل ما هو فريق كرة القدم الذي تشجعه، وما هي الألوان التي تفضل ارتدائها، وما هي أكثر ذكرى مؤلمة في حياتك؟ ولكني أجبت على كل الأسئلة، حتى التافهة والتي شعرت أنها ليست ذات قيمة لم أتركها، واخترت كلماتي بعناية قبل أن أنطق بها، لدرجة جعلتني أشعر أنهم يفخرون بي وبعقلي وتوازني.

انتهت الأسئلة ونظر أعضاء اللجنة إلى ملفي وظلوا يسألونني عن بعض أقاربي، لينتهي الاختبار، بضحكة من أحد أعضاء اللجنة وكلمة بالتوفيق، وهو ما ظننته إشارة واضحة لقبولي ونجاحي.

خرجت من اللجنة وأنا كطير يرفرف في السماء بجناحيه، وسامحوني فلن أتمكن أن أصف لكم الفرحة التي ملئت قلبي، وعمت بيتنا

وبيوت أقاربنا ومعارفنا بل وبيوت كل أهالي المنطقة بعد معرفتهم بأمر قبولي في النيابة العامة، فأنا ورغم مهاراتي كمحامي تجلجل مرافعاته الآن ساحات المحاكم إلا أنني لا أجيد الحديث عن نفسي أو عن أمور تخصني.

المهم أن أهلي وأقاربي بدأوا من يومها ينادونني باسم سيادة المستشار، وعشت الحلم والأمل، ونمت وصحوت وأنا أحلم باليوم الذي أجلس فيه على مكتب مكتوب على بابه وكيل النائب العام، ولكني صحوت من نومي وأحلامي على صفعة دمرت حياتي وأفاقتني من الغيبوبة التي كنت أعيش فيها وشعارات أن لكل مجتهد نصيب، وأن من جد وجد ومن زرع حصد !.

بعد أن ذهبت إلى مقر دار القضاء العالي لمعرفة نتيجة الاختبارات، فوجئت بأن اسمي وبضعة أسماء أخرى مكتوباً في قائمة الناجحين ولكن بجوارهم كلمة احتياطي، وقتها لم أعرف هل أحزن أم أفرح، فهي نتيجة محيرة كمن فوجئ يوم القيامة بأن اسمه ليس ممن سيدخلون الجنة وليس أيضاً ممن سيُحدفون في النار وإنما سيظل معلقاً لا يعرف مصيره، وهو إحساس بشع أعاذكم الله منه.

رغم كل هذا لم أفقد الأمل ولم أستسلم خاصة بعدما أخبرني عدد موظفي وزارة العدل الكبار أنني تعديت مرحلة الخطر بنجاحي في كل

الاختبارات وأن الحكاية مسألة وقت وسيرسلون لي قريباً خطاباً مسجلاً بعلم الوصول لإجراء الفحص الطبي ومن ثم استلام العمل، ولكن بعد استلام الأساسيين لوظائفهم، غير أن أحدهم شار عليّ أن أقدم في النيابة الإدارية ومجلس الدولة فقد أعلنا قبل يومين في صحيفة الأهرام أنهم يريدون دفعة جديدة من الوكلاء الحاصلين على تقدير جيد جداً، ولكني لم أهتم بالأمر.. فلمَ أقدم في كان آخر وقد نجحت في هذا المكان.

أعرف أن بعضكم سيتهمني الآن بالغباء لأني لم أنصت لكلام هذا الرجل، خاصة بعد أن تعرفوا باقي قصتي، ولكنه النصيب يا سادة، فقد كنت وقتها شاب أكملت بالكاد واحد وعشرون عاماً، وخبراتي في الحياة مازالت محدودة، وللأمانة لم أكن على دراية وقتها بهذا الكلام الذي يقال بين السطور.. ولكن الحمد لله على كل حال.

المهم أني انتظرت أسبوعاً تلو الآخر، وطالت فترة الانتظار والجلوس في المنزل وبدلاً من الشهر جلست شهرين وأصبح العام عامين بلا جدوى، حتى أصبت بإكتئاب شديد جعلني أفقد الأمل والرغبة في الحياة، فهذه أول صدمة حقيقية أتعرض لها.. صدمة ليس لي أي دخل فيها.. لا أعرف هل أخطأت في إجاباتي على اللجنة السباعية مثلاً، وإذا كان هناك خطأ فما هو حتى أتعلم منه على الأقل؟ وإذا لم يكن هناك

خطأ أو مشكلة فتُترى ما سبب ما حدث لي، ولكننا للأسف في مصر، حيث لا إجابة مقنعة على أي سؤال يخصك.

ظللت تائهاً بين مئات الأسئلة من هذه العينة، حيران لا أعرف ماذا أفعل في حياتي التي توقفت أمام أعمدة دار القضاء العالي الشاهقة، إلى أن هداني الله وأنصت لكلام والدتي ونصيحتها لي بأن خسارة جولة في مباراة الحياة لا يعني خسارة المباراة كلها، وأن العبرة بالنتيجة النهائية.

اقتنعت بكلام أمي بألا أضيع من عمري مزيداً من السنوات وأن أتقدم لجداول نقابة المحامين وأبدأ في ممارسة مهنة المحاماة، حتى يفرجها الله وتحدث المعجزة، التي لم تحدث حتى الآن رغم مرور كل هذه السنين.

أحد المستشارين الكبار الذين تعرفت عليهم أثناء فترة عملي كمحامي تحت التمرين، أخبرني أن وضعي في جدول الاحتياطي كان أمراً طبيعياً لأنني لست من أبناء القضاة أو المستشارين كما أنه ليس معي واسطة قوية، ولا يوجد لدي ظهر يجعلني أمر من اختبارات اللجنة السباعية بسهولة، ومن يومها وأنا ناقم على كل أعضاء النيابة الذين أقابلهم سواء في التحقيقات أو في جلسات المحكمة، وأتعامل معهم كندٍ لهم.. رأسي برأسهم، فلست أقل منهم في شيء، فإذا كان تقديرهم في

الليسانس جيد جيداً فأنا الآخر تقديري جيد جداً، وإذا كانوا قد قبلوا في اختبارات النيابة فأنا أيضاً قُبلت، وإذا كان الناس ينادونهم بسعادة المستشار فأنا أيضاً ينادونني في الشارع وفي كل مكان بسيادة المستشار.

فور انتهاء فترة تدريبي، التي استمرت عامين وانتقالي من جدول عام إلى إبتدائي، وتمكني من مواد القانون المدني والجنائي، قمت بافتتاح مكتب خاص بي، أقدم من خلاله خدماتي الجليلة لأبناء المنطقة، فكثيراً ما ذهبت إلى قسم شرطة الطالبية أتدخل لدى مأمور القسم أو ضباط المباحث للإفراج عن ابن أحدهم الذي تم ضبطه تحري لسيره دون بطاقة تحقيق شخصية، ومرات عديدة أتدخل لإنهاء الخلافات والمشاجرات التي تنشب بين أبناء المنطقة، وخصوصا شباب عائلتي رزق ومحروس والذي لا يمر عدة أسابيع إلا ويتعاركا سوياً لأسباب معظمها تافه.

وأذكر أنه في مرة دبت مشاجرة عنيفة فزع لها كل أهالي الطالبية، وأصبحت حديث شارع الهرم بأكمله، فالمشاجرة كانت أشبه بحرب الشوارع، وأبطالها عدد من شباب عائلة محروس، وبين حسن نجل محمود رزق، الطالب الجامعي الذي يدرس في السنة الأولى بكلية الآداب، وذلك بعد أن رآه شباب عائلة محروس وهو يسير مع إحدى

فتيات عائلتهم، في شارع الهرم الرئيسي وبالقرب من مدرسة التجارة التي تدرس فيها الفتاة، فاجتمعوا عليه وأبرحوه ضرباً.

عاد حسن إلى بيته واتصل بأقاربه الذين لم يفوتوا الفرصة وذهبوا بالأسلحة البيضاء والسنج كما يطلقون عليها وكاد الأمر يتطور إلى مجزرة تذهب فيها الأرواح وتسيل فيها الدماء، لولا تدخلي بينهم وحل المشكلة بكل حزم، فجمعت كبار العائلتين وقمت بعمل إيصالات أمانة وجعلتهم يوقعون عليها قبل بداية الجلسة العرفية، لأضمن تنفيذهم لما سيتم الاتفاق عليه، وقد كان.

لن أطيل عليكم، في الحديث عن مكانتي بين أبناء المنطقة، وأعتقد أن ما ذكرته كفيلاً بأن يعرفكم ما الذي يمنعني من أن أقوم بعمل آخر يدر عليّ دخلاً، حتى لا يقول الناس أن سيادة المستشار الذي يحترموه ويوقروه لا يجد ما ينفقه على نفسه وعلى زوجته وطفليه الذين مازالوا يدرسون في الصفوف الأولى بالمرحلة الإبتدائية، وذهب ليعمل "سوّاق"، وأرجو ألا يُفهم من كلامي أنني أقلل من مهنة السائق، فهي مهنة محترمة ومعظم من يعملون فيها وأنا أعرف الكثير منهم إناس متعلمين وأصحاب شهادات جامعية وأخلاق رفيعة ولكني أتحدث عن الشكل الاجتماعي ومكانتي بين الناس والتي أوضحتها لكم قبل قليل.

أعرف أن أحدكم الآن يدور في رأسه سؤالاً هاماً، وهو كيف لمحامي بهذه الصفات التي أحكي عنها ويكون لديه مشكلة مادية ويحتاج لشيء يزيد به دخله، وسأرد عليك بأنه وقبل أي شيء هناك مقولة مصرية شهيرة تقول إن "البحر يحب الزيادة"، وأنا كباقي المصريين أبحث عن أي زيادة في دخلي حتى أوسع على زوجتي وأولادي ولكن بالحلال.. أريدهم مثلاً أن يقضون أسبوع المصيف في مرسى مطروح بدلاً من الإسكندرية التي أصبحت لا تطاق بسبب الزحام، أغيّر ديكورات الشقة وألوانها التي لم تعد زاهية وبراقة كيوم انتهى منها النقاش، أشتري غسالة أطباق لزوجتي التي أبلت أصابعها الجميلة في غسيل الأطباق والأواني والأكواب، أغيّر شاشة التليفزيون بواحدة أخرى أكبر في الحجم.

والسبب الثاني هو أنني لست كباقي المحامين الذين تعرفونهم أو سمعتم عنهم ذات يوم، فأنا من نوعية خاصة جداً قلما تقابلوها، فقد أكلت على "طبلية" أبي، الذي علمني أن الحرام لا يدوم، وأن المال والجاه يضيع ولا يبقى إلا السيرة الحسنة والسمعة الطيبة، وبعد تدقيق وملاحظة مني وجدت أن معظم أعمال المحاماة الآن تدخل في باب الحرام أو على أقل تقدير بها شبهة حرام بعدما تحول معظم المحامين للدفاع عن تصرفات وأفعال خاطئة وباطلة شرعاً وقانوناً بدعوى أنهم موكلون عن هذا الشخص، فتجدهم يقلبون

الباطل حقاً والحق باطلاً، ويخرجون هذا من قضية مخدرات لخطأ في الأحراز، وهذا من جريمة قتل لخطأ في إجراءات الضبط، وغيرها الكثير من الثغرات القانونية التي يستغلونها، والتي بالمناسبة أعرفها جيداً حتى لا يقول أحدكم أن هذا "قصر ديل".

المهم أنني وكما ذكرت لكم بعد دراسة للوضع العام واستخارة الله، قررت أن أتخصص في القضايا المدنية والأحوال الشخصية والدعاوى الشرعي فقط، وأحاول طوال الوقت الابتعاد عن الدعاوى والقضايا الجنائية إلا إذا كنت متأكداً مليون في المائة من براءة المتهم، حتى أنام الليل وأنا مستريح البال.

أحدكم سيسألني الآن كيف لا تقبل الدعاوى الجنائية رغم أن الأتعاب فيها تكون أكبر بكثير من تلك التي يدفعها أصحاب الدعاوى المدنية أو الأحوال الشخصية، وسأرد عليه بأنني إنسان صاحب مبدأ، فالبحث عن مؤخر صداق سيدة مطلقة أو نفقة طفل تهرب منه والده النذل وإعادة حقه إليه أو إثبات حق شخص نصب عليه آخر بإيصال أمانة، أهم بكثير من الدفاع عن شاب تالف يشرب مخدرات أو يتاجر في الأستروكس، أو زوجة خائنة قتلت زوجها بالاتفاق مع عشيقها، أو غيرها من الجرائم التي تسمعون عنها كل يوم وتقرأونها على صفحات الجرائد ومواقع الانترنت، ورغم أنني كما قلت لكم

متمكن جداً من القانون الجنائي وأعرف ثغراته جيداً إلا أنني أبتعد عن الشبهات، فلا أريد أن أدخل بيتي مليماً واحداً من حرام.

وبعيداً عن الحرام والحلال، فأنا أرى أن قضايا الجنايات والجنح ليس فيها أي إبداع أو ابتكار، فموادها واحدة ومعروفة وثغراتها أيضاً معروفة ودائماً ما تكون الدفوع التي تُكتب في مذكرات الدفاع محددة ومعروفة مسبقاً، بعكس الدعاوى المدنية والأحوال الشخصية التي تدفعك لأن تجرى وراء الحقيقة وتبحث عن أوراق البراءة أو الإثبات، وهو ما يجعل للمهنة متعة خاصة.

منذ عدة أيام، التقيت صديقي عصام الذي يعيش بالقرب مني في نزلة السمان ويعمل في منطقة الأهرامات، بعدد من الجمال والخيول الذين اشتراهم على مراحل واستأجر من يعمل عليهم بعد أن كان قادماً من الفيوم، وهو لا يملك ثمن أجرة السيارة النصف النقل التي يغطي صندوقها الخلفي ستارة لتحمي الركاب من حرارة الشمس في الصيف وبعض البرودة في الشتاء، وذلك قبل أن يتطور الأمر حالياً وتتحول هذه السيارات للعمل في القرى بينما أصبح للقاهرة سيارات ميكروباص نظيفة بل وبعضها مكيف.

المهم أن عصام هذا وقت أن جاء من قريتهم في مركز سنورس بالفيوم كان فقيراً معدماً، ولم يكن معه ثمن أجرة السيارة التي

تعيده إلى بلدتهم مرة أخرى، ولكنه تمكن من عمل ثروة كبيرة من تأجير ذلك الجمل الذي اشتراه، للسياح الذين يأتون من كل مكان لمشاهدة أحد عجائب الدنيا السبع، ويدفعون له بالعملة الأجنبية مقابل دقائق من المتعة وعدد من الصور الفوتوغرافية أو على الموبايل وهم يركبون على الجمل وفي خلفيتهم الأهرامات أو أبو الهول، وربما يكون هو نفس من يحتضن هذه السائحة أو تلك في الصورة، لتزيد ثروته ويصبح الجمل الواحد جملين وحصان وحنطور.

وأذكر أنني ذهبت يوماً مع إحدى الفتيات اللاتي تعرفت عليهن خلال فترة دراستي بكلية حقوق القاهرة إلى الأهرامات، فقد كنت بلا مبالغة "دونجوان" الجامعة الذي تعشقه الفتيات لما له من قدرة على جذب الجنس الناعم بشياكته ومظهره ولباقته، فبمجرد وصولي لمنطقة القبة السماوية مقر تجمع طلبة حقوق، تجري الفتيات عليّ ويلتفون حولي، فكنت لهم الصديق المثالي الشهم الجدع الذي يأتمنوه على أسرارهم الخاصة جداً، وكنت أنصحهم وأوجههم لما فيه المصلحة، ولم أفكر في يوم من الأيام أن أطور علاقتي بأي منهن لحب أو حتى إعجاب حتى لا أفقد الباقيات، فكلهن صديقاتي وأخواتي.

ألمح في عين بعضكم الآن نظرات شك وريبة فيما أقوله، فطبيعي جداً أن أعجب بإحدى زميلاتي أو ع الأقل أنجذب بها، ولكني كما قلت لكم وأنا صادق فيما قلت، لم أحاول حتى مجرد محاولة أن

أحب أو أعجب بأي من زميلاتي في الجامعة، لسببين: الأول أن قلبي في هذه الفترة كان مشغولاً بحب عظيم سأحكيه لكم فيما بعد، والثاني أن العقل والمنطق يقول أنني إذا ارتبطت بإحدى زميلاتي فبالتأكيد ستغير عليّ وستبعدني عن الجميع حتى أكون لها وحدها، وهو ما لم أحبه.

المهم وحتى لا أطيل عليكم في هذه النقطة، خرجنا في رحلة مصغرة، مجموعة حوالي أربعة إلى الأهرامات، ورغم أنني من أبناء المنطقة إلا أنني لم أكن معتاداً على الصعود إلى الأهرامات إلا في المناسبات الرسمية فقط، خاصة بعد أن قاموا بعمل سور حوله ووضعوا رجال أمن وشرطة في كل مكان، رغم أنني وقت أن كنت صغيراً كنت أصعد مع أقراني لنلعب الكرة عند هرم خوفو الكبير، وكثيراً ما كانت خروجاتنا في شم النسيم مثلاً أو العيد الصغير أو الكبير تحت سفح الأهرامات، ولكن الآن كل شيء تبدل وتغير، ولم يعد هناك مجالٌ لفعل هذا.

القصد أني ذهبت مع أصدقائي للأهرامات، وعند أبو الهول التقيت بعصام الذي أبهرني بقدرته البالغة على التحدث بأكثر من خمس أو ست لغات ما بين الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية والروسية، وزاد انبهاري بعدما رأيته يحصل على عشرين دولاراً من السائح مقابل ركوب الجمل لمدة عشر دقائق فقط.

سرحت مع نفسي أحسب لو أنه لم يركب الجمل سوى خمسين سائحاً فقط في اليوم سيدفع كل منهم عشرين دولار، فيصبح الناتج ألف دولار في خمسة جنيهات ونصف قيمة الدولار الآن، فيكون الناتج الإجمالي خمسة آلاف وخمسمائة جنيه يومياً!!.

تكررت زياراتي لعصام، وأصبحت أنظر إليه على أنه المليونير المتخفي، فشكله وملابسه لا تنم إطلاقاً على أنه يمتلك ألف جنيه فقط وليس خمسة أو عشرة ملايين جنيه على الأقل، فهو من النوع الذي يقولون عنه شبع بعد جوع، فتجده يكتنز الأموال ويستثمرها ولا يصرف منها شيء إلا بالكاد، مثل غيره من الفلاحين الوافدين للقاهرة.

عذراً حتى لا يتهمني أصحاب النفوس الضعيفة والمتربصين أنني أسخر من الفلاحين أو أقلل منهم، فهم أفضل الناس على الإطلاق، ويكفي أني أصولي من الفلاحين منبع الطيبة والكرم، ولكني أقصد بحديثي عن الفلاحين بأنهم يقدرون ثمن غربتهم ويضعون الجنيه على أخيه الجنيه حتى يصنعوا منه مبلغ يستطيعون به الإنفاق على ذويهم ويكفونهم في الأكل والملبس والتعليم.

ولكن عصام لم يكن من النوع الذي يمكن أن يدفع أمواله في ملابس غالية أو ماركات أجنبية مشهورة، أو أن يأكل في مطاعم فاخرة أو "فرنشيز" معروف، فجلابية فلاحي عادية تفي بالغرض، وأي

سندوتش فول أو طعمية أو سميط من المخبز الأفرنجي تسد الجوع تكفي وزيادة، أما الأموال التي يحصدها من عمله فلها طرق أخرى تذهب إليها وتعرفها جيداً، مثل شراء أراضي كثيرة في قريتهم بالفيوم، أو في المناطق المتطرفة في القاهرة أو الجيزة.

عرفت منذ فترة أن عصام اشترى قطعة أرض بالقرب من الطريق الدائري ناحية فيصل، وقام ببناء عمارة سكنية عليها بنظام المناصفة مع أحد المقاولين من أبناء الصعيد الذين تخصصوا في نظام المشاركة، وصعد بالعمارة اثنى عشر دوراً، في كل دور ثلاث شقق، حصل هو على ثمانية عشر شقة، بحكم أنه صاحب الأرض، والمقاول الذي تكفل بالبناء والطوب والأسمنت حصل هو الآخر على ثمانية عشر شقة، على أن تكون المحلات الموجود في الطابق الأرضي مناصفة بينهما أيضاً.

ما أحكيه ليس حسداً لعصام، فأنا لست من أصحاب العيون الصفراء التي تحسد، فكما سبق وقلت لكم أن عيني "شبعانة"، كما أنني أحب عصام وأراه شخص مجتهد ويبحث عن أي سبيل لزيادة ثروته، خاصة بعدما ضُربت السياحة وأصبح ٩٠ % من زوار الأهرامات مصريين، يركبون الجمال والخيول بعشرة بل خمسة جنيهات فقط، بل ويفاصلون فيها أيضاً.

ربما يسألني أحدكم ما سر تركيزك على عصام وحياته بهذا الشكل، والإجابة بسيطة فما قصدته من الحديث عن عصام هو توضيح مدى إعجابي وانبهاري به وبعقليته الاقتصادية الغريبة التي تجعله مثلاً لا يضع أمواله في البنك ويحصل منها على فائدة، بل يستثمرها في شراء أراضي وعقارات وبعض المشغولات والحلي الذهبية لزوجته، كما أنه سيرتبط بحياتي وطريقة تفكيري ارتباطاً وثيقاً خلال الفترة القادمة.

وأذكر أنني سألت عصام ذات مرة عن سبب عدم وضع أمواله في البنك خاصة وأن البنوك الآن تعطي فائدة كبيرة، فقال لي إن الأمر له أكثر من جانب أولها هو الابتعاد عن شبهة الحرام لأن بعض المشايخ قالوا إن الفائدة التي تأتي من أموال البنوك حرام وتدخل في بند الربا، والحقيقة أنه عندما قال لي هذا الكلام لم أستطع أن أتمالك نفسي وظللت أضحك بشكل هيستري لدرجة أن عصام شعر بالضيق وبأني أسخر منه، وهو ما لم أقصده بالمرة.

ولكن لكم أن تتخيلوا شخص يعمل مع السياح، ويرى أجسادهم العارية، وكثيراً ما لامست يداه تلك الأجساد سواء بقصد أو بغير قصد.. شخص يلبي رغبات بعض السياح ممن يريدون نوع خمر معين أو حشيش مثلاً، شخص تقريباً حياته بها أكثر من ٩٠% أشياء حرام أو على الأقل بها شبهة يخاف أخذ فائدة البنك لأنها حرام.

المهم أني صالحت عصام وأوضحت له أني لم أقصد السخرية منه أو التقليل من كلامه، وطلبت منه أن يستكمل حديثه عن أسباب عدم وضع أمواله في البنك، ففاجئني بأن السبب الثاني أنه مهما كانت الفائدة كبيرة فلن تكون بحجم ما ستربحه هذه الأموال في سوق الأراضي والعقارات والذي تصل أرباحه إلى أكثر من ٥٠٠ في المائة، وأما السبب الثالث وهو الأهم أن وجود الأموال في البنك سيفتح عليه باب بعض الجهات الرقابية التي قد تسأله من أين لك هذا؟!.

ألم أقل لكم أنني معجب به، بل ومنبهر بعقليته الاقتصادية والتي تنم عن أن من يقف ورائها شخص متعلم تعليم عالٍ بل ومثقف ومطلع أيضاً، وليس شخص لم يتعلم من الأساس ولم يحصل على أي شهادة جامعية، ولن أخفيكم سراً أنني تمنيت كثيراً أن أكون مثله، وأن أعمل معه في السياحة، وبخاصة بعد عدم قبولي في وظيفة النيابة، ولكني فشلت في تحقيق هذا الحلم أيضاً.

المهم حتى لا أطيل عليكم، عرف عصام بما أنا فيه من ضيق الحال، وقرر أن يساعدني بطريقته الخاصة، فقد عرض عليّ صفقة العمر كما وصفها، والتي ستغير حياتي رأساً على عقب، لأن نصيبي فيها سيكون عبارة عن مبلغ مالي أمامه ستة أصفار على الأقل.

- أيوه يعني أعمل ايه؟؟

- تشتغل خِرتي ؟!!

(٢)

أنا بقى سماح.. وعلى فكرة ده مش بس اسمي، دي كمان صفتي، فأنا متسامحة مع الجميع، لدرجة تجعل البعض يقولون عني أنني "عبيطة"، ولكني لست "عبيطة"، فأنا أعرف كل شيء، وأفهم كل شيء، غير أني أتظاهر أحياناً بأنني لا أعرف شيء، أو كما يقول شباب هذه الأيام "بعدّيها بمزاجي".

أعرف أن هذا التصرف غالباً ما يكون خطئاً وبه قدر من الطيبة والسذاجة التي تجعل الآخرين لا يعطونك قدرك الحقيقي وأحياناً يطمعون فيك، ولن أخفي عيكم سراً أنني على يقيت بأن طيبتي وتسامحي هذا يجعلني عرضة للطمع فيّ واستغلالي بل والتقليل مني كما حدث معي أكثر من مرة، ولكن لو نظرت للجانب الآخر فستجد مميزات كثيرة لأن تكون طيب ومتسامح مثلي، أولها هو رضا الله الذي بالتأكيد لن يعامل الطيبين أمثالي مثل الخبثاء والمكارين والمخادعين، والثاني هو حب كل من حولك لك وثقتهم فيك، لدرجة أنهم يحكون لك أدق تفاصيل حياتهم، والثالث وهو الأهم أنه قدري ونصيبي الذي ارتضيت به ولم أندم عليه حتى الآن.

بالتأكيد سيتهمني بعضكم الآن بادعاء المثالية والطيبة خاصة بعدما أخبرتكم أنني أكون على علم بكل ما يدور حولي، ولكني أتظاهر بالجهل وعدم المعرفة، وهذا ليس عيباً، فما فائدة أن تقول للشخص الذي أمامك أنه كذاب، فمجرد اكتشافك لحقيقته وتعاملك على هذا الأساس يمنحك متعة لا مثيل لها، كما أن مقاطعتك له وإخباره أنه يكذب يحرمك من شغف ومتعة الحكي ويجعل الحكاية بلا طعم ولا لون ولا رائحة، وأنا مدمنة لسماع الحكايات وتفاصيلها الدقيقة التي أعتبرها مثل البهارات التي توضع على الأكل لتغير من طعمه، وأجتهد وأتعب في التفكير عن حلول لأصحابها الذين يقصدونني ليحكوا لي ويسمعوا لمشورتي.

نشأت وتربيت في شبين القناطر، ولتصحيح المعلومة فشبين القناطر ليس لها علاقة من قريب أو بعيد بالقناطر الخيرية التي يذهب إليها الناس في شم النسيم للتنزه وسط الزراعات والحدائق وعلى شاطئ نهر النيل، وسبب هذا التوضيح أن إحدى جاراتي في الهرم ألمحت لي قبل عدة أيام عندما عرفت أنني سأذهب بأولادي الصغار إلى أهلي في شبين القناطر لقضاء شم النسيم معهم أن تحضر هي وزوجها وأولادها لقضاء اليوم على شاطئ النيل بعيداً عن زحمة القاهرة ودخانها، في البداية قلت لها تنور وأن بيتنا يتسع لألف من الأحبة فنحن بيت كرم ولا يمكن أن نقول لشخص يود زيارتنا لا يوجد

مكان، ولكن شبين القناطر ليس لها علاقة بالقناطر الخيرية وليس بها نيل، ولكنها لم تصدق كلامي واعتقدت أنني أقول لها هذا الكلام لأتهرب منها ومن دعوتها على أكلة فطير ورنجة بين أجواء الطبيعة.

أعود إلى نشأتي وتربيتي في شبين، فقد نشأت طفلة وحيدة على ثلاثة أخوة من الذكور، كنت أنا أصغرهم، الدلوعة التي لا يرفضون لها طلباً، والدي ميسور الحال، وحيداً لا أخ له ولا أخت، ترك له والده المنزل الذي نعيش فيه، وقطعة أرض مباني على الطريق الرئيسي، وعدد من الأفدنة الزراعية يستأجرهم أحد أقاربنا بنظام المناصفة.

اجتهد والدي معنا حتى قام بتعليمنا، أشقائي الثلاثة حصلوا على مؤهلات جامعية، أما أنا فرفضت من البداية دخول الثانوية العامة بعد حرب الأعصاب التي رأيت أشقائي الكبار فيها، فقد كانوا يعذّبون حرفياً خلال هذه المرحلة، مدرسة في الصباح، ودروس خصوصية بعد العصر، ومذاكرة حتى الفجر، حرمان من الفسح ومن حضور الأفراح والجميع على نغمة واحدة: "مينفعش انت في ثانوية عامة"، لتنتهي الامتحانات وتظهر النتيجة ويصبح الكل واحد بعدما تساوى الجميع في اللاشيء.

شقيقي الأكبر كان نصيبه كلية تربية، والثاني كلية آداب، والثالث كلية تجارة، وجميعهم جلسوا في المنزل بعد التخرج دون عمل، ومن

عمل منهم ففي مهنة أخرى لا علاقة لها بدراسته أو مؤهله الجامعي، لذا قررت اختصار الطريق وعدم تكرار تجاربهم الفاشلة في التعليم، خاصة وأنا أحفظ كلام والدتي جيداً أن الفتاة مهما حصلت على مؤهلات فمصيرها لبيتها وزوجها.

حصلت على دبلوم تجارة، وكنت أتمنى أن استكمل دراستي في المعهد الفني التجاري حتى يكون مؤهلي فوق متوسط، ولكن العرسان الذين كانوا يطرقون بابنا ليل نهار لم يعطونني الفرصة لذلك، فقد تمت خطبتي وأنا في السنة الثانية بالمدرسة الثانوية، واتفق العريس وهو أحد أبناء القرية الحاصل على دبلوم صنايع، ويعمل مع والده في ورشة النجارة التي يمتلكها، على أن يكون الزفاف عقب انتهاء امتحانات السنة الثالثة لي وقبل ظهور النتيجة، وهو ما رفضته في البداية معللة ذلك بأنه قد يحدث في الأمور أمور ولا أتمكن من النجاح، وهو طبعاً غير صحيح فأنا كنت تلميذة نبيهة وتحصل على الدرجات النهائية في كل الامتحانات من الابتدائي حتى الإعدادي والثانوي، ولكنها كانت حجة حتى أرتاح قليلاً وأحصل على فاصل بين الدراسة والزواج.

لم يقتنع العريس وأهله بما أقول وأقنع أهلي أن النتيجة لن تفرق كثيراً معه وأن كل ما يهمه هو أن أكون بجانبه وأن ننجب أطفالاً يأخذون جمالي ولون عيوني الخضراء كخضار البرسيم كما كان يقول.

هل تعرفون أن لون عيوني الخضراء هذا كان سبب تعاستي لأكثر من نصف عمري، فمنذ أن بدأت معالم الأنوثة تظهر عليّ، وبدأ خرّاط البنات يخرطني، والتف حولي مئات الشباب الطامعين في نظرة مني، فكثيراً ما سمعت أذني كلمات غزل وأنا في طريقي للمدرسة أو لزيارة أحد أقاربنا في البلدة، وكثيراً ما تلقيت عروضاً بالحب والصداقة، كما توسطت زميلاتي لكثير من أقاربهن ليفتحوا خطوط للاتصال معي، ولكني كنت أرفض بشدة، فكنت محترمة ولم أعط الفرصة لأي شاب أن يقترب مني أو حتى يتحدث إليّ، فلم أكن من هؤلاء الفتيات اللاتي كن يهربن من المدرسة ويخرجن مع أصدقائهم الشباب في الحدائق العامة ويذهبن معهم إلى السينما للحصول على قبلة خاطفة أو حضن سريع في ظلام دار العرض.

كنت ومازلت أخاف الله وأعمل له ألف حساب في كل كلمة وفعل أقوم به، وهذا كان أول أسباب رفضي لإقامة علاقة مع أي شاب أو الخروج معه، وثانياً لرعبي من أشقائي الثلاثة وما قد يفعلونه بي إن علموا أن لي علاقات عاطفية، ناهيك عن خوفي على سمعتي التي قد تصبح كاللبانة في فم من يسوي ومن لا يسوي من أهل البلدة، صحيح أننا في مدينة ولكننا لا نفرق كثيراً عن القرية، فعددنا ليس كبير وكلنا عائلات كلٌ منا يعرف الآخر، والسمعة تنتشر أسرع مما تتخيل.

لم يستمر هذا الوضع طويلاً فكما سبق وذكرت تمت خطبتي وأنا في السنة الثانية من دراستي بالثانوية التجارية أي أن عمري وقتها لم يكن يتعدى الستة عشر عاماً، وتم الزواج في اليوم التالي لانتهاء امتحانات الدبلوم.

سيسألني أحدكم الآن، كيف تم الزواج وأنا عمري ستة عشر عاماً، والقانون يمنع أن تتزوج الفتاة أقل من ثمانية عشر، فسأقول لك بسيطة.. فقد جرى العرف في بلدتنا على أن يتم إشهار عقد القران في المسجد على مسمع ومرأى من جميع الأهالي، وبالنسبة للأوراق الحكومية وقسيمة الزواج التي يحررها المأذون لمن هم في سني، فإن العريس يوقع على عقد عرفي بوكيل وشهود، وعلى إيصال أمانة بمبلغ مالي كبير، حتى لا يحدث في الأمور أمور ويتهرب من الزواج لاقدر الله، وحينما تتم العروس السن القانوني يتم عمل عقد جديد، ويُقطع إيصال الأمانة والعقد العرفي.

هل تعرفون المشكلة الوحيدة في هذه الطريقة للزواج.. هي حمل الفتاة قبل العقد الجديد الموثق..صحيح أن العاملين في الوحدة الصحية وهم من أبناء البلدة يثبتون المولود ويستخرجون له شهادة ميلاد، ولكن تخيل أن يولد الطفل قبل موعد زواج والدته المدون في القسيمة بعام مثلاً، أو عام وشهرين، ولكني والحمد لله لم يحدث

معي هذا الأمر، ولم أقع في هذه الورطة، لأنني لم أرزق بأطفال لا قبل توثيق العقد ولا بعده.

بدأنا تجهيزات الفرح منذ أجازة نصف العام تقريباً، والشهادة لله فقد وفرت أمي عليّ الكثير من التعب والمشقة، بعدما فوجئت بها قد اشترت لي أشياء كثيرة من جهاز والأشياء التي تحتاجها العرائس في جهازها، وكنا ننزل مرتين في الأسبوع لنشتري ما أحتاجه.. مرة بعض الأطقم الزجاجية التي توضع في النيش والتي يتم استخدامها في المطبخ.. ومرة بعض المفارش والمناشف، ومرات كثيرة من أجل الملابس والغيارات الداخلية وغيرها من مستلزمات الفرح.

اقترب موعد الزفاف وجاء يوم كتب الكتاب، ومن الطبيعي مثل باقي الفتيات يتم كتابة قائمة بالمنقولات، والحقيقة أني لم أكن أعرف معنى كلمة "قايمة" ولا ما هو مفادها أو مغزاها، وكل ما عرفته من والدي وأشقائي أن هذا حق.. ما حدث في اليوم السابق لكتب الكتاب كان غريباً، ولكني وأهلي لحسن نيتنا لم نتوقف عنده كثيراً ولم نعطه اهتماماً أكبر من حجمه، غير أني عرفت مغزاه بعد ذلك.

فمن عاداتنا نجن أبناء الريف والأقاليم أن نكتب كل ما تشتريه الفتاة من أجهزة كهربائية ومفارش وسجاد أواني وأطقم زجاجية، بالإضافة طبعا لما يجهزه العريس من غرفة نوم وغرفة أطفال وغرفة

انتريـة وسـفرة، نكتـب كل هـذه بأثمانهـا الحقيقيـة في القائمـة ويوقـع عليها العـريس ووالـده وأحـد الشـهود، غير أن مـا حـدث كان مفاجـأة.. فكما ذكرت لكم فإن العـريس يعمل مع والـده في ورشـة النجاة التي يمتلكونهـا أسـفل منزلهم، وبالتـالي فقـد قـاموا هـم بعمـل كل الأشـياء الخشبية من سرير ودولاب وغيره، وعندما جاءت لحظة كتابة سـعرهم في القائمـة قـالوا على أثمـان زهيـدة وبسـيطة جـداً، وهـو مـا جعـل أخي الأصـغر يعترض ويقـول أن هـذه الأسـعار أقـل بكثير مـن السـوق، ليرد والد العريس بأنه حذف منها ثمن المصنعية.

الموقـف قـد يعتبره البعض بسـيطاً مثلما فعل والـدي الـذي نهر أخي، وكتـب لهـم مـا أرادوه، غير أن الأيـام سـتثبت أن نوايـاهم لـم تكـن سليمة، كما أنه وكما نقول في بلدتنا "اللي شاري ما بيبعش وبالتالي مبيدقش في الحاجات دي".

تـم الـزواج ودخلـت بيـت العـريس، وسـأكون صـادقة معكـم في كل مـا سـأحكيه لكـم الآن.. فلكـم أن تتخيلـوا سـت سـنوات عشـتها مع زوجي، لـم أعـرف فيها طعـم الفـرح أو السـعادة سـوى في الشـهور الأولى فقـط، قبـل أن تبـدأ المشـاكل والخلافـات معـه بسـبب الحمـل والأطفـال، فالأصل في بلدتنا التي قلت لكم إنها تشبه القرى أن تحمل الفتاة من ليلـة الدخلـة، وتنجـب بعـد مـرور تسـعة أشـهر بالتمـام والكمـال، وهـذا طبعاً لم يحدث معي، فقد مر العام الأول ولم يحدث الحمل، وهو ما

أثار غضب حماتي الذي زاد وأصبح لا يطاق بعد حمل "سلفتي"، والسلفة في الفلاحين هي زوجة شقيق الزوج الذي غالباً ما يكون الأخ الأصغر، لأن عاداتنا تمنع أن يتزوج الصغير قبل الكبير، والأخ الذكر قبل الفتاة حتى وإن كان هو الكبير.

أيام صعبة وليالٍ طويلة مرّت عليّ وكأنها السحاب الثقال، فرغم ثقتي بنفسي ويقيني أن ليس بي أي عيب، وأن الأمر كله لا يتعدى القسمة والنصيب وإرادة الله التي لم تأت بعد، إلا أنني عشت أياماً مريرة مليئة بالحزن والقهر، خاصة وأن زوجي الذي كان يقول ويردد دائماً أنه يحبني بل ويعشق التراب الذي أمشي عليه، لم يتمكن من الوقوف في وجه والدته التي طالبته بأن يتصرف، ولن أخفيكم سراً أنني نفسي بدأت أشعر بالغيرة بعد ولادة "سلفتي" ووصول أول طفل إلى البيت، فحلم أي فتاة أن تنجب أطفالاً، ولو تتذكرون أننا كفتيات ومنذ نعومة أظافرنا كنا نشتري العرائس البلاستيك للعب بها ونقوم بتصفيف شعرها وتصميم ملابس لها والاعتناء بها، فالأمومة طبع فينا نولد به، ولكن ماذا نفعل أمام إرادة الله.

سنوات طويلة مرت ونحن نلف وندور على الأطباء والمتخصصين، فنسمع عن هذا الدكتور في بنها فنذهب إليه، وهذا الطبيب في الإسكندرية فنطير إليه وندفع له، وذاك عائد لتوه من الخارج

وعيادته في القاهرة فنسافر له ونحجز عنده.. تحاليل كثيرة هنا وهناك، والنتيجة واحدة:

- انتي سليمة ومعندكيش أي موانع للحمل، وزوجك كمان سليم وليس لديه موانع والحكاية مسألة وقت ونصيب

أحد أقاربنا حدثنا عن عمليات الحقن المجهري، ورغم تكلفتها العالية بالنسبة لزوجي إلا أن حماتي وهي المتحكمة في مصروف البيت كله وكل الأمور المادية، وتحصل على إيراد الورشة وتوزّعه بمعرفتها، لم تبخل علينا، فقد كان حلمها أن ترى طفلاً لأبنها البكري.

أعطتنا حماتي مصروفات أول وثاني وثالث عملية، إلى أن ملّت ومللت أنا الأخرى لدرجة أني فقدت الأمل ورضيت بالأمر الواقع، ووصل بي الحال أني رفضت الذهاب مجدداً لأي طبيب مهما كانت سمعته أو شهرته رغم طلب زوجي ذلك مراراً وتكراراً، فقد أقنعت نفسي أن هذا رزقي ونصيبي من الحياة، وأن الإنسان لا يمكن أن يحصل على كل شيء.

بالتأكيد سمعتم جميعاً عن كسرة النفس، ولكن الكثير منكم لم يجربها، ولم يشعر بمرارة طعمها، وأدعوا الله أن يحفظكم منها، وألا تجربوها، أو تتذوقوا طعمها المر، وسامحوني فلن أجد كلمات يمكن أن تصف لكم طعم كسرة النفس ولا مذاق القهر الذي عشته بعد

فشل عمليات الحقن المجهري التي قمت بعملها، خاصة مع الغمز واللمز الذي كانت تقوم به حماتي في كل مرة تراني فيها، فكانت تسخر مني في الذهاب والإياب، وترمي كلمات مهينة من أنني أرض بور مرة أو شجرة دكر مرة أخرى، وكنت أتحمل كلامها ونظراتها القاتلة التي كانت تذبحني في اليوم مئات بل آلاف المرات، وأقول لنفسي يكفي أن زوجي يحبني ويقدرني.

ست سنوات كاملة عشتها في البيت، أعامل الصغير قبل الكبير بحب وحنية، أسمع لهم شكواهم، وأبحث عن حلول لمشاكلهم، أفرح لفرحهم وأغتم لحزنهم، حتى أطفال البيت كلهم كانوا ينادونني بماما سماح، فكنت الصدر الحنون للجميع إلا حماتي، التي بالرغم من كل ما كانت تفعله معي إلا أنني لم أفكر مجرد تفكير في تحريض نساء البيت عليها أو أن أقول في حقها أي كلمة سيئة، بل صدقوني إن قلت لكم أني كنت أعذرها في كل ما كانت تقوله وتفعله فحقها أن ترى حفيد لها من أكبر أبنائها.. فأنتم لا تعرفون معنى الأبن الأكبر ومكانته في المنزل، خاصة في بلادنا، فقد رأيت بعيني كيف تعامل والدتي أول حفيد لها من شقيقي الأكبر، وأنا شخصياً كنت أتمنى أن أفرّحها وأفرّح نفسي وزوجي قبلها ولكن الأمر ليس بيدي.

استمرت الحياة بهذا الشكل الصعب وهذه الطريقة التي لا يمكن أن يتحملها إنسان طبيعي، إلى أن فوجئت بزوجي يدخل عليّ ذات يوم

ليخبرني أنه قرر أن يتزوج من ابنة عمه الأرملة التي توفي زوجها قبل عدة أشهر، وترك لها عشرة أفدنة ومبلغ كبير في البنك وطفل لم يتجاوز الثلاث سنوات، وقتها شعرت بالحسرة وعرفت طعم كسرة النفس، وأحسست كأنه أمسك سكين بارد وقام بذبحي به بلا رحمة أو شفقة.

حاول زوجي أن يشرح لي أنني أول بختة وحب حياته وأنه لم يحب قبلي ولن يحب بعدي، وأن حكاية زواجه من ابنة عمه التي تكبره بسنوات مجرد صفقة للاستفادة من الأفدنة العشرة التي ورثتها والتي ستعود بالنفع علينا جميعاً، خاصة وأن الورشة لم تعد كسابق عهدها بعد ارتفاع أسعار الأخشاب وأجور العمال وتفضيل الزبائن للأشياء الجاهزة التي أصبح ثمنها أرخص بكثير من العمولة.

لم أقتنع بكلام زوجي ولا مبرراته لأنني أعرف أنه ليس إنساناً مادياً بمعنى أنه لن يتزوجها من أجل مالها، فخلال عشرتي له طيلة السنوات الماضية لم يأخذ مليماً واحداً من نقودي التي كان يمنحها لي والدي كمصروف شهري، أو العيدية التي كان يعطيها لي هو أو أشقائي.

ظللت أسأل نفسي عن سر إصراره على الزواج منها رغم تهديدي له بالطلاق، فهي ليست جميلة أو فاتنة لتعجبه فهي لم تصل لربع أو

حتى ثمن جمالي وحلاوتي، وتيقنت أن والدته أقنعته بها كون أنها ولّادة وبالتأكيد ستنجب له الطفل الذي يحلمون به، ورفضت أن أكون الزوجة الثانية، وأن أوضع في مقارنة مع أي واحدة مهما كانت، وطلبت الطلاق.

للمرة الثالثة أشعر بكسرة النفس ولكن هذه المرة كانت الأحاسيس مضاعفة ومضاف عليها شعور بالإهانة.. نفس أحاسيس الحسرة والألم الذي شعرت بهما عندما أخبرني أنه سيزوج من قريبته، شعرت بهما وأكثر عندما وافق بسهولة على الطلاق، فكنت أتوقع أن يتمسك بي أكثر من هذا، ويرفض الابتعاد عني، بل ويماطل في الطلاق ولو بالكذب، فأي سيدة منا تحب أن تشعر بأن هناك من يريد الحفاظ عليها وعدم التفريط فيها، وأن الرجل الذي تعرت أمامه ونامت في حضنه لسنوات لن يتخلى عنها بهذه السهولة، ولكنني فوجئت به يوافق بسرعة وبسهولة غريبة وكأنه كان ينتظرها مني.

رمى عليّ يمين الطلاق، بل وأرسل العفش بأكمله إلى منزل أهلي بسيارة الورشة مع بعض العمال، وكأن الفرصة أتته ليتخلص مني ومن أي أثر لي.

جلست أياماً وليالٍ بدون أكل أو شرب، أنام ودمعتي على خدي، اسأل نفسي في كل دقيقة هل كنت رخيصة بهذا الشكل الذي يجعله يفرط

في ويستغنى عني بعد ست سنوات زواج لم أغضب فيهم يوماً واحداً، ولم أقل له فيهم سوى كلمتي حاضر ونعم، وكانت الابتسامة لا تفارق وجهي، رغم كل ما أراه وأعانيه من والدته وقسوتها وطريقتها الفجة في التعامل والسخرية مني، ومن عدم إنجابي ووصفي بالأرض البور مرة وبشجرة الكافور مرة أخرى.. هل كنت مخطئة عندما حافظت له على ماله وعرضه وأخلصت له، وجعلت بيته روضة من رياض الجنة، ولم أخبر أهلي يوماً بقسوته عليّ والتي وصلت في بعض الأحيان للضرب، أو بخله أحيانا ورفضه شراء ملابس جديدة مثلا لي.

أعلم أن الله ليس بظالم وأن كل ما يفعله بنا وبحياتنا هو لمصلحتنا وبالتأكيد له حكمة في كل ما حدث لي، ولكن إحساسي بالظلم وبالحسرة فاق هذا العلم وهذا اليقين، ودعوت الله كثيراً أن يفرج عني، وأن يعوضني خيراً عما لاقيته وعانيته.

استسلمت للأمر الواقع، وفتحت باب غرفتي وخرجت من القمقم الذي حبست نفسي فيه لأسابيع منذ عودتي مكسورة لمنزل والدي، واندمجت مع أبناء أشقائي الذين غمروني بحبهم، وعوضوني عن تعبي وآلامي، وشغلت نفسي معهم ومع طلباتهم واحتياجاتهم، فكنت أصنع لهم الحلويات التي كنت بارعة في عملها، وأجلسهم بجواري أحكي لهم حواديت ست الحسن والجمال التي ضحت بحياتها من أجل من لا يستحق، وعادت إلى بيت أهلها وهي مكسورة، وحكاية الشاطر حسن

الذي خدع الجميع بطيبته ومظهره البراق، واتضح أنه ليس شاطراً ولم يفعل أي شيء حسن.

مرت الأيام ثقيلة، والليالي طويلة، لا تريد أن تمر أو تنتهي، وقد لا تعلمون أن المطلقة في بلدتنا يمنع عليها الخروج من المنزل وكأنها وباء معدي بحجة أنها مطمع للجميع، الأقارب قبل الغرباء، فالرجال ينظرون إليها أنها صيدة سهلة، ولن تأخذ "غلوة" في يد أي رجل يريد إقامة علاقة عاطفية معها، والنساء أيضاً ينظرن إليها أنها خطافة رجالة، ومن الممكن أن تخطف زوجها، خاصة وإن كانت في جمال جسدي الممشوق وبشرتي البيضاء ولون عيوني الخضراء، ولأنني أعلم كل هذا لم أنتظر كلمة توجيه أو نصح من أحد، فحبست نفسي في البيت ولم أخرج منه، واكتفيت بالصلاة والدعاء واللعب مع أطفال أشقائي.

وكأن باب السماء قد فتح خصيصاً لي، وقرر الله أن يعوضني بخير مما فقدت وأن يبدل الجحيم الذي عشت فيه بالنعيم الذي تمنيته وحلمت به، فقبل أن تنتهي مدة العدة، فوجئت بشريف ابن خالي الذي يعيش في القاهرة، يحضر لزيارتنا ويقول لي كلاماً لم أكن أتوقع أن يخرج منه فهو دونجوان الجامعة معشوق الفتيات اللاتي يتصلن به ليل نهار ويخرجن للتنزه وقضاء أوقات ولحظات سعادة معه مرة في القناطر ومرة في الأهرامات ومرات في الإسكندرية وبورسعيد، ولا

أخفيكم سراً أنني كثيراً ما تمنيت أن أكون مثل هؤلاء الفتيات الجريئات اللاتي يعرفن كلمات الحب والغرام وتنطقها ألسنتهن بدون خوف أو كسوف، ولكني لم أعرف طريقاً لها.

وجدت شريف يفاجئني وأنا أجلس معه في غرفة الصالون وبدون أي خجل أو كسوف من والدي أو والدتي أو شقيقي الأوسط الذين كانوا يجلسون معنا في نفس الغرفة، يخبرني أنني كنت ومازلت فتاة أحلامه التي كثيراً ما تمناها في صحوه ومنامه، وأن زواجي بعد انتهاء الدبلوم كان أكبر صدمة أصابته في حياته لدرجه جعلته يرفض الزواج من أي فتاة وقرر أن يعيش حياة الراهب لأكثر من ست سنوات، قبل أن ينهي حديثه بأنه سيقول كلمة واحدة ولا ينتظر أي رد عليها في الوقت الحالي:

- تتجوزيني يا سماح

(٣)

أعلم أن كثيراً مما سأحكيه الآن لا يصح أن أبوح به أو أكشف عن تفاصيله خاصة وأنه لا يخصني وحدي بل يخص والدي أحد أبناء الريف المصري المقهورين الذين لم يترك لهم أبائهم ميراثاً من المال أو الأراضي والأطيان بل تركوا له إرثاً ثقيلاً من المرض والفقر والحوجه.. أبي لم يتعلم ولم يدخل المدارس، فقد كان مشغولاً بما هو أهم.. لقمة العيش التي كانت تأتي بالتعب والشقاء وأحياناً الذل والمهانة.

لن أطيل عليكم في حكاية والدي يكفي أن أقول لكم أنه ظل لسنوات يعمل "نفر" في "الخطارية"، ولمن لا يعرف معنى "الخطارية" فهم مجموعة من رجال القرية الفقراء والمعدمين يخرجون مجموعات للعمل في تنظيف الترع والمصارف بالفؤوس في دورة لمدة خمسة وأربعون يوماً، يخرجون من بيوتهم وهم لا يعرفون وجهتهم ويتحركون لأي محافظة أو مديرية تحددها الحكومة، مقابل بضعة جنيهات تكاد تكفيهم في نهاية المدة.

تزوج والدي من والدتي التي لم تكن أحسن منه حالاً، فكانت هي الأخرى تعمل باليومية في الأراضي، تقوم مرة بشتل الأرز، ومرة بضم القمح، ومرة في جمع الحشائش من أراضي الذرة، ومرات في جمع

الطماطم والخيار من الأراضي، وفي موسم القطن في جمع الورقات المصابة من الأشجار.. وهكذا.

حضرت إلى الدنيا بعد أربع سنوات من زواج والدي بوالدتي، واختاروا لي اسم عصام، ولا أعرف حتى الآن معنى اسمي أو لماذا اختاروه، ولكنه مثل أشياء كثيرة لا أعرف سبباً لها، المهم أنه بع ولادتي أنجبت والدتي شقيقي وشقيقتي الصغيرة آخر العنقود، وبدأت الحياة تزداد صعوبة على صعوبتها، فإطعام ثلاثة أطفال ليس بالشيء الهين أو اليسير على رجل في فقر والدي الذي استدان من كل من يعرفهم ومن لا يعرفهم.

بدأت أكبر وأرى بنفسي ما هم فيه من هم وغم وضيق حال، إلى أن خرجت لأول مرة مع والدتي للعمل في جمع الدودة من أراضي القطن وكان عمري وقتها خمس سنوات.

يوم كامل في الشمس والحر أقوم بفرز أشجار القطن وقطع الأوراق المصابة ووضعها في الكيس القماش الذي صنعته لي والدتي من جلباب والدي القديم المتهالك.. يوم كامل أخرج فيه من السادسة صباحاً ولا أعود سوى في السادسة مساءً.. يوم كامل لا يصل جوفي فيه سوى نصف رغيف من الخبز وقطعة جبن قديمة وبعض المش..

يوم كامل بمائة وخمسون قرش لا أحصل عليهم سوى نهاية الأسبوع مجمعين.

- تخيل ١٢ ساعة شغل وتعب وقرف من الخولي وتحكم من الملاحظ وذل ومهانة وفي الآخر اليوم يقف بجنيه ونص

حملت المسئولية مبكراً، وتحملي المسئولية هذه جعلني أتغاضى كثيراً عن أفعال لا تعجبني وأتنازل عن جزء من كرامتي أو إن أردتم التوصيف الدقيق فقولوا أني تنازلت عن كرامتي كلها من أجل لقمة العيش، فمرات كثيرة كان "الخولي" وهو ملاحظ الأنفار في أرض القطن يقوم بضربي بالخيرزانة على مؤخرتي كوني لم ألحظ بعض الأوراق المصابة ولم أقطعها من الشجرة وأضعها في الكيس، كانت الضربات موجعة ولكني كنت أتحمل وأحبس دمعتي وأمنعها من النزول حتى لا أصبح مثار سخرية زملائي من الأطفال.

كنت أتغاضى عن أي كلمة أو فعل من "الخولي" أو حتى زملائي خوفاً من انقطاع يوميتي، وكثيراً ما كان يهددني بالطرد من الأرض وكنت أبكي له وأتحايل عليه لدرجة قيامي مرة بتقبيل يده أمام الجميع، كي يعفو عني ولا يقطع عيشي، فكنت أخاف أن يأتي آخر الأسبوع ولا أعود بالعشرة جنيهات لوالدي الذي رتب حياته عليها ليكمل بها مصاريف الحياة ومتطلباتها.

سيقول أحدكم الآن كيف تحصل على عشرة جنيهات فقط في الأسبوع وقد قلت قبل قليل أن اليومية مائة وخمسون قرشاً، سأقول لك أن هناك طابع دمغة عبارة عن أربعون قرشاً تخصم كل أسبوع من كل عامل، وطبعاً العشرة قروش المتبقية تضيع لأن موظف الجمعية الزراعية الذي يقوم بإعطاءنا الأجرة غالباً لا يوجد لديه فكة من فئة العشرة قروش، وإذا كان معه العشرة قروش فإني أأخذها لنفسي وتكون من حظي ونصيبي.

هل تعرفون أنني كثيراً ما فكرت وأنا في السادسة من عمري أن أهرب من العمل في جمع الدودة ولو لنصف يوم فقط مثل باقي زملائي ومن هم في عمري.. أجري معهم وألعب الكرة و"الاستغماية" و"صلّح" على شاطئ إحدى الترع، ولكني كنت أتراجع ليس خوفاً من والدي الذي لم أذكر يوماً أنه ضربني أو نهرني أو علمني شيئاً من الأساس فقد كان مشغولاً طوال الوقت بشغله في الخطرية وليس لديه وقت لنا ولا لغيرنا.

المهم أني لم أطاوع نفسي لأهرب من الدودة رغم كثرة إغراءات الشيطان لي، وكما قلت ليس هذا بسبب خوفي من والدي ولكن لإحساسي بالمسئولية الملقاة على عاتقي تجاهه وتجاه والدتي وأشقائي الصغار الذين كانوا يعلقون آمالهم عليّ وينظرون لي على أنني رجلاً،

فلم أكن أريد أن أكسر بخاطرهم ويكفي هرولتهم عليّ وجريهم نحوي فور عودتي مساء كل يوم.

انتهت فترة جمع الدودة وحرقها، وبدأت مرحلة رش محصول القطن بالمبيدات، ويومها تحايلت على مهندس الجمعية كي يقبلني للعمل فيها، ولكنه رفض لأن سني كان صغيراً والحكومة تشترط ألا يعمل في مشروع الرش أقل من تسع سنوات لأن أقل من هذا العمر لن يقوى على تحمل رائحة المبيدات أو حمل الموتور، ولكني استعطفته وبكيت أمامه وحكيت له عن ظروفنا الصعبة واحتياجنا لكل جنيه في البيت، وقلت له أني قوي وأتحمل أكثر من هذا بكثير فقط عليه أن يجرّب.

أيام مريرة وصعبة مليئة بالذل والمهانة عشتها طوال طفولتي، لا أذكر مثلا أنني لعبت يوماً في الشارع مع الأطفال، حتى في أفراح القرية كنت أتدارى أنا وأخوتي ولا نذهب إلى هناك، فليس لدينا ملابس جديدة أو نظيفة نرتديها لنحضر بها، وحتى العيد لم نكن نشعر به فكنا نرتدي ملابس قديمة يعطيها أهالي القرية الميسورين الحال لوالدتي، ولا يمكن أن أصف لك إحساسي بالغضب الشديد والنقمة على هذه الدنيا الغير عادلة التي لا تساوي بين الناس وبعضهم البعض.

كنت صغيراً ولكني كنت أعرف وأعي كل شيء، إحساس الحرمان هذا هو أصعب ما يمكن أن يشعر به إنسان حي، فلم أعرف شكل وطعم اللحم طوال طفولتي، وكثيراً ما نمت أحلم بنفسي وأنا أجلس لأكل قطعة من فخذ الجاموسة، ولكنها كانت مجرد أحلام طفل محروم، كثيراً ما نام ليالٍ طويلة بدون عشاء ولو تصادف ووجد في البيت أكل فيكون إما مش وإما فول مدمس كانت والدتي تسويه على لمبة الجاز، وفي الأعياد والمناسبات كان النابت هو الأكلة الرسمية لنا، وبالتأكيد وطبقاً لظروفي التي حكيتها لكم فقد حُرمت من التعليم ودخول المدارس فليس لدينا ما ننفقه على الأكل والشرب حتى نلتفت لمثل هذه الرفاهيات.

لن أطيل عليكم في وصف معاناتي وحرماني طوال فترة طفولتي، ولكنها كانت ضرورية لتعرفوا أن نجاحي ووصولي لما أنا فيه الآن لم يأت من فراغ، وأن قلة مصروفاتي وحفاظي على المال الذي جمعته وسأجمعه ليس بخلاً وإنما هو حرص وخوف من المستقبل وما قد يحدث فيه.

نزلت القاهرة لأول مرة وأنا في الثانية عشر من عمري، مع مجموعة من أهل البلدة الذين يعملون في مجال المعمار، ما بين البناء والمحارة، بعدما اتفق معي أسطى بناء على أن أعمل مساعداً له أحمل الرمل والأسمنت إليه وأناوله الطوب بأجر خمسون جنيهاً في

الأسبوع، واتكلت على الله وركبت معهم في صندوق سيارة نصف نقل، أقلتنا وكأننا مواشي في طريقها للسوق.

تحركنا من القرية بعد العصر تقريباً، فقد كان نظان العمل أن نذهب قبل يوم الشغل بليلة، حتى نستقر في الماكن الذي سنبيت فيه، ونرتب أحوالنا ومعداتنا، ثم ننام ونأخذ كفايتنا من النوم حتى نصبح ونذهب للعمل ونحن في أتم صحتنا وتركيزنا.

ركبت في صندوق السيارة مع أكثر من ٤٠ شخص كلهم من قريتنا وبعض القرى المجاورة، وتحركت السيارة حتى لمحت الأضواء من بعيد فعرفت أننا اقتربنا من مصر.. ومصر هذا مصطلح نطلقه على القاهرة، فأي شخص يسافر ليعمل في العاصمة هو بالنسبة لنا سافر إلى مصر.

لن أخفيكم سراً أن مصر سحرتني بعدما رأيت جمالها وأنوارها واستغربت جداً من عادات الناس فيها الذين يصلون الليل بالنهار سهارى على المقاهي وفي الشوارع.. انبهرت ببذخهم الكبير في الأكل والشرب، وأحببت الحياة والعمل فيها، خاصة وأن كل الناس الذين نعمل لديهم يقدمون لنا يومياً إما لحم أو دجاج أو أسماك، مع الأرز الذي عرف أخيراً طريقه لمعدتي بعدما كان مقصوراً أكله في الأعياد

والمناسبات فقط، والمعكرونة التي تذوقتها لأول مرة في حياتي وانبهرت بها وبأشكالها المختلفة.

كنت على يقين بأن لا يوجد شيء يحدث في هذه الحياة بالصدفة، وأن الله له حكمة في كل شيء، ولذا لم أتفاجئ عندما تصادف يوماً واتفق الأسطى على بناء بيت في منطقة نزلة السمان القريبة من الأهرامات، لرجل يعمل في مجال السياحة، واستغربت جداً من الوضع هناك، فهذا الرجل وهو من السكان الأصليين للمنطقة يربي في بيته خيول وجمال، في مشهد ذكرني بقريتنا عليها وعلى ذكرياتي فيها لعنة الله، وسألت نجله الذي كان قريباً من عمري عن السر، فأخبرني أنهم يستخدمونها في العمل بمنطقة الأهرامات للسياح.

يومان ونحن نعمل لدى الرجل في منزله نطلي له واجهة البيت بالأسمنت ليزداد جمالاً، وتوطدت علاقتي بابنه الذي عرض عليّ أن يستأذن والده في أن أعمل معهم باليومية على أحد الجمال الموجودة، فوافقت من باب التجربة أولاً ولرؤية السياح ذوات البشرة البيضاء والحمراء الذي يدفعون أموالهم لكي يركبوا جمالاً وخيولاً.

لم أكن أتخيل أن يأتي عليّ يوم وأمسك فيه الورقة الخضراء التي يحكون عنها، وأرجوا ألا تضحكوا عليّ إن أخبرتكم أنني لم أكن أعرفها ولا أعرف عنها شيء حين أمسكتها في يدي لأول مرة، بل ظننت أن

الرجل الذي ركب الجمل وقتها ضحك عليّ وأعطاني ورقة ملونة بدلاً من النقود المصري التي نعرفها ونتعامل بها، وخفت من الحاج أن ينهرني أو يعنفني لأن السائح غشّني، ولكني لم أبال كثيراً فعملي في مجال المعمار مازال موجوداً ومحجوزاً بأسمي والأسطى لن يمانع في عودتي في أي وقت، إلا أنني فوجئت به يأخذها مني هي وباقي الأوراق الملونة الحمراء والزرقاء ويعطيني عشرين جنيهاً قال إنها مصروفي.

عشرون جنيهاً في اليوم، أي مائة وأربعون جنيهاً في الأسبوع، يعني ستمائة جنيهاً في الشهر، رقم لم أكن أحلم أو أتخيل أن يأتي عليّ يوم وأمسكه في يدي.. يا الله ما هذا الذي يحدث لي فهل يعقل أن عصام الغلبان يمسك الآن في يده عشرين جنيهاً نظير عمله بضع ساعات فقط في اليوم.

أحببت هذه المهنة وبدأت أركز فيها وفي كل تفاصيلها، وتعلمت بعض الكلمات الأجنبية مثل هالوو، وكان آي هلب يو سير، وثانك يو، وغيرها من الكلمات التي كنت أستخدمها بشكل يومي في تعاملاتي مع السياح، ولا يمكن أن أصف لك فرحتي بأول ألف جنيه قمت بادخاره في حياتي، وبأول مرة نزلت فيها قريتنا بعد شهور من السفر وأنا أحمل في يدي عبايه لشقيقتي الصغرى، وقميص وبنطلون لأخي، اشتريتهم من العتبة قبل سفري بيوم.

أعطيت والدتي يومها مائتي جنيه، صحيح أنها رفضت أخذها في البداية ليس لأنها لا تحتاجها، ولكن لظنها أنها جاءت من طريق حرام، فأي عمل هذا الذي يربح صاحبه مئات الجنيهات، ولكني أخبرتها أنها جاءت من الحلال وبالحلال، وحكيت لها ولهم عن عملي الجديد في السياحة، وما أراه وأشاهده من السياح الأجانب والعرب الذين يأتون إلى الأهرامات ويدفعون بالعملة الصعبة لكي يشاهدوا قطع من الحجارة مرصوصة فوق بعضها البعض.. حجارة وأصنام لا تغني ولا تسمن من جوع.

جرت النقود في يدي، وتمكنت خلال عام واحد فقط من دفع جميع ديون والدي القديمة والجديدة، ثم جاءت اللحظة التي انتظرتها كثيراً، وهي شراء جمل وتشغيله لحسابي الخاص.. فبعد أيام قليلة من عملي مع الحاج اكتشفت أنه يخدعني ويكسب من ورائي الآلاف ولا يعطني سوى الملاليم، ورغم ما عانيته لكي أضع قدمي وسط أهالي المنطقة مالكي الجمال والخيول، ورفضهم لدخول "الخِرتية" بينهم إلا أنني تمكنت من حجز مكان لي في السوق واستأجرت غرفة كنت أنام فيها أنا والجمل الذي اشتريته، وكان وش السعد والخير عليّ، وعلى عائلتي.

حرب صعبة قادها الحاج وأحبابه ضدي، فكانوا يحاربونني بشكل واضح وصريح، ولم يحمني منهم سوى مخبر المباحث، الذي ذهبت

إليه وعرضت عليه أن أعمل مرشداً له وأبلغ عن زملائي من أصحاب الجمال والخيول الذين يعملون في المنطقة، أبلغ عن أي تصرف خطأ يفعلونه كأن يستغلون أحد السياح ويأخذون منه مبالغ كبيرة وغير معقولة، أو أن يضحكون عليه ويبيعون للسائحين بضاعة مضروبة وغير رديئة، أو أي شيء يحدث بين اصحاب الخيول والجمال.. فقد كان هناك تقرير يومي مني عن الجميع، وهو ما جعلهم يتركونني في حالي ولا يتقربون مني.

أعرف أن بعضكم سيقول في نفسه الآن، لماذا أقدمت على هذه الخطوة وبعت نفسي لرجال البماحث وذهبت لأعرض عليهم العمل كمرشد وأبلغ عن زملائي في مشهد أقرب للفنان نور الشريف عندما ذهب في أحد الأفلام وعرض على الاسرائيليين أن يعمل جاسوساً مقابل المال، ولكني سأشرح لكم.. أولاً أنا غريب عن المنطقة وليس لدي ظهر أو سند فيها يحميني خاصة وأنهم لا يحبون الخرتية أمثالي ولا يسمحون لهم بالعمل إلا بمعرفتهم وتحت قيادتهم، والأمر الثانية أني بعملي مع المخبرين ورجال المباحث أقدم خدمة جليلة للبلد في حماية السياحة والسياح ومنع استغلالهم والضحك عليهم.

المهم أني اقنعت نفسي بأني على صواب، وبدأ الجميع يتلاشاني ويبتعد عني ويكفوا عن أذيتي خوفاً من أن أبلغ عنهم، وتزهزهت الحياة لي وفي غضون بضعة أعوام أصبح الجمل الواحد جملين

أعمل عليهم أنا وشقيقي الأصغر الذي أرسلت إليه في البلد وأحضرته ليعيش معي ويعمل بجوار، وبعدها اشتريت عربة حنطور يجرها حصان يعمل عليها والدي أحياناً وأحيان أخرى نستأجر شاباً للعمل عليها.

أحدكم سيسألني عن معنى "الخِرتي"، ولماذا يرفضون دخولهم السوق، أقول لكم أن "الخراتية" هم السماسرة الذين يبيعون ويشترون أي شيء حتى أنفسهم، ومعظمهم يكون من المعدمين القادمين من القرى والنجوع كالفيوم أو بني سويف للعمل في منطقة الأهرامات وأبو الهول، فهناك خِرتي يصطاد الزبون من شارع الهرم الرئيسي ويتفق معه على الرحلة وركوب الجمل ثم يصعد به حتى مدخل أبو الهول ويبيعه للجمالين والخيالة، وهناك خِرتي يصطاد السائحين من فوق وينزل ليبيعهم إلى أصحاب البازارات ليشتروا هداياهم من ذهب وفضة وبرديات وتماثيل جير ويأخذ عمولته، وهناك الخِرتي الذي لا يعمل إلا في التماثيل الأصلية الرخام والجرانيت التي تخرج من باطن الأرض، وخِرتية يبيعون ويشترون الدولارات من السائحين، وخِرتية آخرون يبيعون أجسادهم للسائحين، وهناك خِرتية محترمون مثلي يعملون جمّالين أو خيّالة على ممتلكات غيرهم من أبناء المنطقة ويحصلون على مصروف يومي وبقشيش من السياح إن أعجبتهم الرحلة.

وأما عن سبب رفض دخول الخِرتية وبخاصة المعدمين أمثالي للعمل في المنطقة السياحية فسببه أن بعض منهم أو إن أردت أن أكون دقيقاً وواضحاً فقل كثيرٌ منهم سيء السلوك يستغل السياح وينصب عليهم ليحصل على مزيد من المال وبالتالي يسيء لكل العاملين في المجال، ولكني لم أكن أبداً منهم فرغم عوزتي وحاجتي الدائمة للمال للتخلص من آثار الفقر القديم الذي حاولت أن أحكي لكم عنه، إلا أنني لم أنصب على أي سائح أو أستغله، فكنت حريص طوال الوقت على أن تظل سمعتي جيدة، وأن أكسب قوتي من طريق حلال.

أعرف أن بداخلكم الآن تعليق يخص قولي بأني حريص على أن أكسب قوتي من طريق حلال، وهو ما يتعارض مع ما قاله لكم صديقي شريف المحامي المحترم من أنني عرضت عليه العمل خِرتي في تجارة الآثار، وهي نقطة سأحكي لكم عنها في وقتها، وأرجو ألا تؤثر عليكم في الحكم عليّ وفي ما أحكيه لكم.

أعود بكم إلى قصتي وما وصلت إليه، فقد استغلّيت ما مررت به من فقر وتعب وذل ومهانة في الوصول إلى القمة، وعملت بحكمة والدتي أن "الرزق يحب الخفية كما يحتاج الزرع إلى المياه"، فجمعت أموال كثيرة اشتريت ببعضها قطعة أرض في قريتنا بنيت عليها منزل كبير لأبي وأمي وأخوتي وقمت بتجهيز غرفه كلها على أعلى مستوى محاورة

ودهان، واشتريت لوالدتي غسالة أتوماتيك بالكهرباء وثلاجة بها أربعة أرفرف بهل فاكهة ومياه مثلجة وعصائر.

أملاكي وممتلكاتي لم تتوقف عند البيت والثلاجة والغسالة والبوتجاز، فقد قمت بتوفيق من الله طبعاً بشراء عدد كبير من قطع الأراضي وصلت الآن إلى أربعة أفدنة، وعشرة قراريط كتبت عقدهم منذ أسبوعين، وزوّجت شقيقتي الصغيرة واشتريت لها جهاز محترم جعل كل أهالي البلد يحسدونها عليه أثناء وضعه في السيارات النصف نقل لنقله من منزلنا الجديد لمنزل العريس، وقمت بتسفير والدي ووالدتي إلى السعودية لأداء العمرة، وتزوجت وأنجبت ثلاثة فتيات وهاهي زوجتي حامل للمرة الرابعة، وآمل أن يكون الجنين ولد كي أضمن ألا تضيع أموالي والأراضي التي تعبت في تجميعها وتتفرق على أزواجهم فيما بعد.

تضاعفت ثروتي ونقلت محل نشاطي من السياحة وشراء الأراضي والعقارات في قريتنا بالفيوم إلى القاهرة، فشاركت عدد من المقاولين القادمين من الصعيد لاستثمار أموالهم، وقمت بشراء أكثر من قطعة أرض في فيصل واللبيني وتشاركت في بنائهم عمارات وشقق ومحلات وحصدت من ورائهم الملايين، ولكني أعترف أمامكم أنه بالرغم من كل ما حصلت عليه ووصلت له إلا أني لم أشبع ومازال لدي إحساس بالنقص والعوزة، وكأني عطشان ولم يجد سوى ماء البحر المالح

فأخذ يشرب منه وكلما شرب ازداد عطشه أكثر وأكثر، ناهيك عن خوفي الدائم من المستقبل والفقر، وهو ما جعلني أحاول تأمين مستقبل بناتي بأي طريقة كانت.

بالأمس وضعت زوجتي المولود الرابع الذي انتظرناه، والذي كنا نظنه ذكراً، ولكن للأسف خرجت أنثى لتنضم إلى شقيقاتها ويصبح لدي أربعة فتيات، وأرجو ألا تفهموا كلامي بطريقة خاطئة فلست ضد إنجاب الفتيات فأنا أحبهم وأعلم أن رزقهم واسع، ولكن في نفس الوقت أنا مثل باقي المصريين أحلم بالولد الذي سيحمل اسمي ويود أخوته البنات ويصبح سنداً وظهراً لي عندما أكبر في السن، مثلما كنت السند والظهر لوالدي، ولكن يبدو أن زوجتي لا تضع سوى الإناث فقط، وهو ما جعلني أبحث عن طريق آخر لإنجاب الولد.

فكرت أكثر من مرة أن أتزوج من امرأة أخرى، ولا أخفيكم سراً أنني تلقيت عروضاً للزواج أكثر من مرة من أجنبيات ذوات البشرة الشقراء والشعر الأصفر والعيون الملونة، ولكني كنت أرفض أن تتحول علاقتي معهم ولياليا الحلوة إلى زواجاً رسمياً بمأذون وشهود، فأنا لا أعرف شيئاً عن ماضي وتاريخ هؤلاء النساء، وكوني فلاحاً في الأساس يجعلني أبحث عن تاريخ وأصل وفصل من سأتزوجها وتكون أم أبنائي في المستقبل.

- يبقى أرجع البلد واجيب من هناك

(٤)

أي شخص مكاني وفي ظروفي التي سبق وحكيتها لكم، سيوافق على الاشتراك في هذه الصفقة، خاصة وأنا أسمع يومياً عن المئات من سكان منطقتنا الذين تغيرت حياتهم، بعدما نالهم من الحب جانب في صفقات بيع المساخيط، ويكفي أن أخبرك بإحدى الصفقات التي نفُذت قبل فترة في أحد الفنادق الصغيرة القريبة من كوبري أبو الهول، حينما حضر المشتري بسيارته الجيب الشيروكي السوداء، واستلم بضاعته وأعطى شنطة الدولارات للبائع والوسيط، وأثناء خروجهم أعطوا السائس الذي قام بمسح سياراتهم عشرة ألاف دولار خمسة من البائع ومثلهم من المشتري، بدعوى أن من حضر القسمة فليقتسم وأنه فأل خير عليهم جميعاً.

تخيل عشرة آلاف دولار للسائس الذي لم يتعب في أي شيء، سوى أنه مسح لهم سياراتهم بالفوطة التي يحملها في يده وقال لهم مع السلامة يا باشا.. عشرة آلاف دولار للسائس فكم يكون نصيب الوسيط والبائع.

تزاحمت الأسئلة في رأسي وتسارعت الأفكار هذه تأتي وتلك تنسحب، وشعرت وكأنني في أحد اختبارات الثانوية العامة، التي بالرغم من

مذاكرة المادة ومعرفة المقرر جيداً إلا أنك وقفت أمام كراسة الإجابة وأمسكت القلم ولم تستطع كتابة أي حرف .

أين سأذهب من عذاب ضميري وأنا أبيع تاريخ أجدادي ومستقبل أولادي للأجانب، ثم أعود مرة أخرى وأقول لنفسي أي مستقبل هذا الذي أتحدث عنه، فإذا كان الماضي كله ظلم بداية من وقوف الدولة في وجهي وحرماني من الالتحاق بسلك القضاء والنيابة بسبب عدم وجود واسطة ثقيلة تساندني، وإذا كان الحاضر بهذه القسوة وهذا الظلم الذي نشهده يومياً فكيف سيكون المستقبل، ثم أعود لأقنع نفسي بأن الحق أحق أن يُتبع.

حرب نفسية شديدة وصعبة عشتها على مدى أيام وأسابيع بعد عرض عصام المغربي، الذي قدمه لي قبل عدة أيام، فقد توقع أن أوافق عليه من اللحظة الأولى فهو يعرف ظروفي المادية جيداً فقد حكيت له قبل ذلك عنها، ولكنه فوجئ بي أرفض وأهدده بأنه إن فتح معي هذا الموضوع مرة ثانية فسيكون لي معه تصرف آخر، وقد يصل الأمر لأن أبلغ عنه الشرطة، فلست أنا الذي يقبل أن يشارك في هذه الجريمة ويعمل خِرتي يبيع تاريخ بلده.

لا أعرف كيف تحدثت مع عصام بهذه الطريقة القاسية، فقد كان كلامه مفاجأة لي، فأنا أعرفه وأعرف حدوده جيداً، فهو ليس تاجر

آثار ولم يسبق له العمل في هذه المهنة من قبل، وآخره بيع وشراء الدولارات مثله مثل أي شخص يعمل في مجال السياحة ممن يتعاملون بالعملة الصعبة ومع أجانب.

ربما سيقول أحدكم كيف عرفت هذا الأمر وهل أعمل في المباحث أم مكشوف عني الحجاب، وسأجيبكم بأن أولاً عملي كمحامي متمرس في المحاكم والنيابات وأقسام الشرطة جعلني محترف في كشف الكذابين، فأنا أشم الكذب من على بعد مائة متر، وثانياً وهي الأهم طريقته في عرض الموضوع عليّ كانت غريبة.. طريقة هواه ليس بها أي نوع من أنواع الخبرة ولا يوجد بها حذر أو احتياطات من تلك التي يتخذها تجار الآثار الكبار حتى لا ينكشف أمرهم، ما يعني أنها أول مرة له، كما أنه وبلا شك ودون فزلكة مني إن كان سبق له العمل في تجارة الآثار فسيكون لديه من يتعاون معهم في البيع والشراء وتصريف المنقولات، فهؤلاء الناس لا يحبون التغيير ويفضلون أن تظل الدائرة مغلقة عليهم ولا يسمحوا للغرباء بالدخول بينهم.

استشرت زوجتي في الأمر، وقلت لها إن الصفقة لو تمت فستغير حياتنا رأساً على عقب، ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً، وحلفت بأنه سيكون آخر يوم في حياتنا الزوجية إن وافقت على هذا الأمر، فهي لا تحب أن ننفق على أولادنا من حرام، فهذه الأموال عندما تدخل البيوت العامرة فإنها تخربها وتصيب أهلها بالفقر ولو بعد حين.

حكت سماح لي حكاية عم عبده الذي بدأ قبل فترة في البحث والتنقيب عن الآثار الموجودة تحت منزله، بعدما أخبره أحد المشايخ الذين يدعون أنه مكشوف عنهم الحجاب أن المساخيط يملئون باطن الأرض، وأقنعه بأن يحفر ويستخرج المساخيط ويبيعها حتى تنقلب حياته ويتحول لأحد أثرياء المنطقة، وبالفعل اقتنع عم عبده وشرع في الحفر أسفل الغرفة الخارجية لمنزله القديم، ولم يمر سوى أسابيع قليلة حتى سقط المنزل عليه هو وأولاده وهم نائمون ليموتوا جميعاً، وينتهي حلم الثراء الجميل بكارثة الوفاة وترك الدنيا بما فيها.

الريس فوزي لم يكن أحسن حالاً من عم عبده، فقد اعتقد أنه وصل للكنز بعدما حفر في سرية تامة وبعيداً عن أعين المخبرين الذين أصبحوا في كل مكان، ظل يحفر بمفرده لأيام وأسابيع وشهور طويلة أسفل بيته قبل أن تداهمه المياه الجوفية التي خرجت من الأرض بغزارة لتغرقه هو وكل من كان في البيت وهو نيام بالليل، والحاج متولي الذي انتظرت الشرطة حتى انتهى من الحفر ووصل للمقبرة فهجمت على المنزل وألقت القبض عليه هو وكل من معه وصادرت المضبوطات، وأودعته السجن هو وزوجته وأولاده، وغيرهم من أهل المنطقة الذين يحكي الناس حكاياتهم ليل نهار.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها سماح منفعلة وتتحدث بصوت عالي وتتعامل معي بهذه الطريقة، فقد مر على زواجنا سنوات

ومن قبلهم وقبل زواجنا ظللت لسنوات أراقبها في صمت، ولم أرها وهي بهذا الشكل، فقد شعرت وكأن ثعبان لدغها، فتغير لونها وشحب وجهها الذي أصبح في اصفرار الليمونة وانتفضت تسبه وتلعنه.

أعرف أنها على صواب، ولكني كنت أبحث عن محلل، أي شخص يوافق على الفكرة ويعطني المبرر والدافع للاشتراك في الصفقة، خاصة بعدما أقنعت نفسي بها وبأنه من الناحية القانونية لا توجد عليّ أي مسائلة لو انكشف الأمر فلن أحضر الحفر أو التسليم، ولن أظهر في الصورة من الأساس، فأنا مجرد وسيط سأعرّف البائع على المشتري، وسيكون لي نسبة معروفة ومحددة في الصفقة حال إتمامها، ومن الناحية الأخلاقية والدينية سيكون ذنب وانتهى وسأتوب منه بعد ذلك، والله غفور رحيم.

حاولت أن أتجاهل صوت ضميري وكلام سماح، ولكني فشلت وهو ما جعلني أعود للتفكير من جديد في موضوع تشغيل سيارتي والذي كان الحل الأخير لي بعدما فكرت كثيراً في عدد من المشاريع التجارية، مثل افتتاح مقهى أو صالة بلياردو أو انترنت كافيه أو أي من هذه المشاريع التي أصحبت موضة ويحقق أصحابها مبالغ طائلة كل يوم، ولكني كنت أتراجع عنها قبل أن أبدأ فيها، خوفاً على شكلي أمام الناس، فلا يعقل أن يقف محامي محترم مثلي لكي يقدم للزبائن الشيشة أو

الشاي والقهوة، أو يجلس ليحصّل ثمن قيام بعض الشباب بلعب البلياردو، أو ما إلى غير ذلك.

بالتأكيد سيرد أحدكم الآن ويقول إن تشغيل السيارات هو الحل الأمثل خاصة وأن الأمر أصبح أسهل بكثير عما ذي قبل، فمشروع أوبر وكريم يسّر الأمر لدرجة أن عدد كبير من الأطباء والمهندسين والصحفيين يعملون فيه بسياراتهم الملاكي في أوقات الفراغ، كل ما عليك أن تقوم بتنزيل التطبيق على تليفونك المحمول وتوصله بالانترنت وتختار الزبائن من يعجبك صورته توافق على الرحلة ومن لا يعجبك أو تشعر أنك تعرفه ترفض وانتهى الأمر على ذلك.

سأرد عليك في هذه النقطة بأنني فكرت فعلاً في هذا الأمر، بل ودخلت على الإنترنت وبحثت عن أماكن تلك الشركات وشروطهم وكيفية التقديم وما إلى ذلك، ولكني تراجعت على الفور بعدما عرفت أن التقديم يستوجب إجراء عمل صحيفة حالة جنائية في قسم الشرطة موجه للشركة، يُكتب فيه الغرض من الفيش: العمل لديكم.

أحد زبائني في المكتب حضر لي قبل بضعة أيام يطلب مني رفع دعوى صحة توقيع للشقة الجديدة التي اشتراها في الشيخ زايد، بالطبع وافقت وأخذت منه العربون الذي سأدفع منه رسوم إقامة الدعوى

فهذا النوع من القضايا رغم أن أتعابه ليست كبيرة ولكنها لا تأخذ وقتاً ولا جهداً والحكم فيها يكون معروف دوماً بإثبات صحة التوقيع.

جلست أتحدث مع الرجل وأتبادل معه أطراف الحديث.. فالمكتب لا يوجد به زبائن غيره، وأنا مثل الحلاق لو لم يكن في المحل زبائن غير واحد يظل يحلق له بالساعات لحين ورود آخر حتى لا يكون المحل خاوياً.. وبحكم أنه جاري، سألته عن أحوال المنطقة ومن فيها ثم تطرقنا لكيفية شراء الشقة خاصة وأن الأسعار في منطقة زايد ارتفعت جداً بعد الثورة، فأصبحت الشقق هناك تبدأ من السبعمائة وخمسون ألف جنيه وقد تصل إلى المليون جنيه، وهو مدرس تربية فنية في إحدى المدارس الإعدادية، أي أن دخله الحكومي لا يمكنه من شراء شقة بهذا السعر، بالإضافة لأن تخصصه لا يحتاج إلى إعطاء دروس خصوصية للطلاب، ما يعني أن هناك مصدر آخر للدخل.

لم يبخل الرجل عليّ بالمعلومة، وأخبرني أنه كان يعمل بعد المدرسة في شركة أوبر كسائق على سيارة قاموا بتوفيرها له، وتمكن خلال عام واحد فقط من تجميع مبلغ تجاوز الخمسين ألف جنيه، أخذهم وذهب إلى أحد البنوك الأجنبية التي تقدم عروض شراء السيارات بفائدة قليلة، ودفعهم كمقدم سيارة جديدة، على أن يقوم بتسديد الأقساط من الربح الذي تحققه السيارة.

سألته وهل يفيض لك الآن دخل بعد سداد الأقساط للبنك، ففاجئني أنه بعد سداد القسط ودفع الصيانات اللازمة للسيارة والبنزين بالإضافة لأكله وعلبة سجائر كل يوم، يتبقى له شهرياً قرابة التسعة آلاف جنيه، وهو ما جعلني أعيد التفكير من جديد في الأمر، بل وأتحمس له بشدة، ولا أخفيك سراً أنني اتخذت القرار فعلاً في تشغيل سيارتي، والتخلص من الحيرة التي سيطرت عليّ، وقمت بحسابها بالورقة والقلم.. سيارتي حديثة ولن أدفع لها أقساط أي أن التسعة آلاف التي يحققها جارنا سيزيد عليهم ثمن قسط البنك الذي لن أدفعه لأن سيارتي موجودة، ما يعني أنني سأحقق قرابة اثنى عشر ألف جنيه كل شهر ما يجعلني أعيش عيشة الملوك.

استخرت الله واتخذت القرار بتنفيذ المشروع، وقررت الذهاب لقسم شرطة بعيد عن المنطقة، وأقوم بعمل الفيش الجنائي وأبدأ العمل والأرزاق على الله، خاصة بعدما شجعتني سماح على ذلك، وظلت تتحدث عن الحسنة المخفية التي لا يعلم عنها أحد وعن البركة في الرزق والمال الحلال وما إلى هذا الكلام الذين تعرفونه وتسمعونه.

ذهبت بالفعل لقسم شرطة مدينة نصر الذي لا يعرفني فيه أحد، وذهبت إلى غرفة الفيش ووقفت في الطابور، وعندما جاء دوري ودخلت للموظفة المسئولة، أمسكت ببطاقتي الشخصية وبعد أن دونت الأسم والعنوان قلبتها على ظهرها وسألتني:

- عايز الفيش لايه يا متر ؟

استيقظت من أحلامي على كلمة متر، وسألت نفسي ماذا ستقول الموظفة عني عندما تعرف أنني سأتوجه بالفيش لشركة أوبر أو كريم لأعمل سائق، فخطفت البطاقة من يدها وخرجت من الغرفة مسرعاً، لاعناً اليوم الذي دخلت فيه كلية الحقوق، وذاكرت حتى أحصل على الليسانس بتقدير جيد جداً، والزمان الأغبر الذي أوقعني في هذا الموقف المحرج.

أعرف أن كثير منكم الآن سيقول عني أنني أبالغ في الحديث وفي تقدير الأمور وربما سيذهب بعضكم إلى احتمالية إصابتي بجنون العظمة، ولكن هذا غير صحيح، فكل كلمة ذكرتها كانت حقيقة واقعة، فرغبتي في الحفاظ على مكانتي واسمي ليس عيباً، فأنا أبحث عن عمل لا يجرح كرامتي ولا يقلل مني ومن وضعي الاجتماعي، ويجعل أولادي يفتخرون بي كمحامي محترم، وفي نفس الوقت يحقق لي دخلاً كبيراً يجعلني أغتني وأغنيهم معي وأزيد من الرفاهية لديهم، وأعتقد أن هذا ليس عيباً أو حراماً.

أقنعت نفسي بأن الغاية تبرر الوسيلة، وعاهدتها أمام الله أن تكون هذه الصفقة هي الأولى والأخيرة التي أشترك فيها، ونويت أن أتبرع بجزء من الأموال التي سأحصل عليها للفقراء والمحتاجين، وبدأت في

سرية تامة وبعيداً عن زوجتي التي نست الأمر واعتبرت أن ما قالته لي كفيلاً بنسيان الفكرة من أساسها وعدم التفكير فيها مرة أخرى.

بحثت في قائمة أصدقائي ومعارفي عمن يكون لديه القدرة على العمل في الآثار، راجعت قائمة تليفوني بدقة، وبحثت في أصدقاء الفيسبوك وبدأت في عمل ملف لكل شخص يمكن أن يكون مشتري أو حتى وسيط يصلني بمن هم أكبر في سوق المال.

انتهت رحلة بحثي وجمعت في ثلاثة أوراق "فلوسكاب" قائمة بها بعض الأسماء ومهنتهم وأرقام تليفوناتهم، ثم جاءت اللحظة الفاصلة والهامة، وهي كيفية فتح الموضوع معهم، فأنا لا أريد أن أكون مثل عصام ويقولون عني أنني مستجد، ما يعني ترددهم وربما خوفهم من خوض التجربة معي، وقد يعتقدون أنه كمين لهم خاصة وأنني محام ومعروف عني أنني لا أقوم بمثل هذه الأعمال.

- كده يبقى ارتب ميعاد مع عصام نتقابل أنا وهو ونشوف عنده ايه وعايز فيهم كام؟

(٥)

ألم أقل لكم إن عوض الله أفضل من الدنيا وما فيها، وأن المظلوم دائماً ما يجازيه الله ويعوضه، وها أنا أكبر دليل على صدق هذا الكلام، فبعد أن اعترف شريف بحبه لي وطلب يدي للزواج، كنت خائفة من تكرار تجربتي الفاشلة في الزواج، فما مررت به ليس هيناً على أي فتاة، ويجعلها طوال الوقت خائفة بل ومرعوبة من أن تقع في نفس الظروف مرة أخرى، ولكني ابديت موافقتي له بعدما أحسست الصدق في كلامه والحب في عينيه، ووافقت على أن يفاتح والدي وأشقائي في الأمر.

لن تصدقوا لو قلت لكم أن ما حدث يوم اتفاق شريف مع والدي كان غريباً ولم استوعبه إلا بعد أن دخلت بيته وعاشرته، إذ فاجئ والدي العريس يوم أن حضر لطلب يدي بقوله: هل تعرف لماذا انفصلت ابنتي عن زوجها السابق وتم طلاقها؟، فقال له شريف لأن نصيبها هناك قد انتهى ولها نصيب أن تكمل حياتها مع شخص آخر، فقال له والدي: لا يا بني ولكن لأنها لم تنجب له أطفالاً، وقد لا تنجب مستقبلاً، وأنت شاب لم يسبق لك الزواج، وبالتأكيد سيأتي اليوم وتسأل عن الأولاد، وتقع ابنتي في نفس الموقف مرة ثانية،

ليقاطعه شريف قبل أن يكمل كلامه ويرد عليه بجملة واحدة تنهي الجلسة بالزغاريط وقراءة الفاتحة.

- بص يا عمي أنا مش هقولك كلام انشا ولا أغاني، بس يكفي اقولك اني عشت أحلم ببنتك طول عمري، واني بحبها عشان هي سماح وأنا مش عايز ولاد ولا بنات هي هتكون بنتي وامي وحبيبتي وكل حاجة ليّ في الدنيا.. أنا مش عايز غيرها هي وبس.

هل تعرفون أنني كنت الفتاة الأولى في بلدتنا التي تكسر العادات والتقاليد التي كبرنا وتربينا عليها، من أن المطلقة أو الأرملة التي تتزوج للمرة الثانية لا يقام لها حفل زفاف، بل تؤخذ في ظلام الليل عقب عقد القران بمعرفة والدها أو أشقائها من منزلها لمنزل العريس مباشرة، وهو ما رفضه شريف، وقال لوالدي إن سماح لم تفعل جرم أو ترتكب ذنب ليتم معاملتها بهذا الشكل المهين، وأنه سيقيم لي حفل زفاف كبير في قاعة مركز الشباب، بل وسيقوم بعقد القران في القاعة أمام كل المدعوين، وليس في بيتنا وسط أقاربنا المقربين كما جرت العادة.

عادات الفلاحين لدينا عادة ما تكون ظالمة ومجحفة للحقوق، ولا أعني أنها ظالمة للفتاة فقط بل أحياناً يصل هذا الظلم الذي يفسره البعض بأنه مجرد عادات وتقاليد إلى الشباب بل وإلى الأباء أنفسهم،

فأنا أعرف فتيات كثيرات ممن هم في عمري ولديهم أطفال صغار لا يتعدى أعمارهم سنتين أو ثلاثة وتوفي أزواجهم في حوادث، ويضطرون إلى الجلوس باقي أعمارهن لتربية الأطفال لأنه عيب تتجوز وتترك لحمها، وهذا بالطبع ظلم للبنت التي قد تكون لازالت في بدايات العشرينات من عمرها، فكما ذكرت لكم نحن أبناء الريف نتزوج في سن مبكر.

قصص الظلم بدعوى العادات والتقاليد كثيرة ومؤلمة، ولكني لن أذكرها لكم، خاصة وأنني مللت من الظلم ومن حكايات المآسي والأحزان، وقررت أن أفرح ما بقي من عمري مع شريف، هدية الله لي وعوضه عن كل ما لاقيته في حياتي، وأمانته التي سأحافظ عليها مهما كلفني ذلك، وهو ما سترونه وتعرفونه بأنفسكم خلال الحكاية.

المهم أنه وبعد جلسة الاتفاق بيومين ذهبت أنا وشريف واستأجرنا فستان زفاف أبيض من أحد المحلات التي فتحت مؤخراً ولم تُستهلك فساتينه بعد، وحجزنا الكوافير وستوديو التصوير، فيما أصر والدي أن يتكفل هو بحجز القاعة ودفع ثمن إيجارها هي والفرقة الغنائية بفقراتها المتنوعة، بالإضافة للمأكولات والمشروبات التي ستقدم للمدعوين، واستقرينا على أول جمعة بعد انتهاء العدة موعداً لحفل الزفاف.

كسوف وخجل غريب سيطر عليّ من يوم الخميس، يوم الحنة، بعدما حضر بعض أقاربنا إلى بيتنا الذي علقت عليه الزينات والأنوار من الخارج، جاءوا لتهنئتي واشتغل "الدي جي" يغني العنب العنب، والنهاردة فرحي يا جدعان، وغيرها من أغنيات الفرح، وما بين رقص زوجات أشقائي وبعض أقاربنا، وزغاريط أمي وخالتي وعمتي، انتابتني مشاعر غريبة ما بين الفرحة والكسوف.

كسوفي هذا كان عادياً وطبيعياً جداً، فالطبيعي والمعروف أن الفتاة في زيجتها الثانية لا تقام لها مراسم الحنة، ولا يعلقون الزينات على بيت والدها وكأنها تتزوج للمرة الأولى، ولكنه كان طلب شريف، الذي بالرغم من غرابته خاصة عندما طلبه من والدي إلا أنه للأمانة لاقى قبول كبير داخلي، وأشعرني أنني إنسانة ومن حقي أن أفرح، وأن هناك من يشتري خاطري فعلاً، ويفعل أي شيء من أجل إسعادي.

سرحت وأنا جالسة في الكوشة، ودار برأسي عدد كبير من الأفكار والأسئلة والسيناريوهات وخاصة فيما قد يحدث غداً في الفرح، كيف سأجلس في الكوشة بجوار شريف، وكيف سيراني أهل البلدة، وماذا سيقولون عني، ثم طرأ برأسي سؤال كنت أرفض أن يقترب مجرد الاقتراب من عقلي.. ترى ما هو رد فعل زوجي السابق؟ هل عرف أنني سأتزوج وسيقام لي حفل زفاف؟ هل أكلته نار الغيرة؟ تُرى هل يمكن أن يفاجئنا ويحضر لوالدي يطلب عودتي إليه لأنه شعر بقيمتي

وعرف أنه لن يستطيع أن يكمل باقي حياته بدوني؟ وإن رفض والدي هل يفعل مثل الأفلام القديمة ويحضر بعض البلطجية ويحضر للحفل ويخطفني أمام أهلي؟!

استيقظت من هواجسي وتساؤلاتي على سؤال هام.. هل لو فعل ذلك فعلاً مع أن صعب الحدوث هل يمكن أن أنسى ما جرى لي منه وأعود له؟ كيف سأشعر بالأمان وأنا أنام في حضنه على سريره تحت سقف غرفة واحدة؟ كيف سأمنحه الحب وأمارسه معه بعدما كسرني وجرحني وتسبب في نزول دموعي وجعلني أنام ليالي طويلة ودمعتي على خدي؟ كيف سأغفر له إحساسي بالذل والمهانة وأنا أرى أشيائي تسبقني إلى بيت أهلي؟

أعرف أنه ليس من حقي أن أفكر فيه ولا أن أذكره سواء أكان بالخير أو الشر، فهو لا يستحق حتى أن أعرفكم باسمه أو أسم عائلته، أولاً لأن علاقتي به قد انتهت إلى الأبد ولا يوجد بيننا ما يربطنا ببعضنا البعض، خاصة وأنني عرفت أنه دخل على قريبته صاحبة الفدادين العشرة منذ أسبوعين تقريباً، ولكنه الفضول الإنساني، ورغبتي في رد الإهانة التي سببها لي أمام نفسي وأهلي بعد أن أرسل متعلقاتي وأجهزتي الكهربائية وغرفة نومي إلى البيت بسيارة الورشة، كما أنني وسامحوني في تفكيري هذا كنت أنتظر أن يتراجع عن موضوع زيجته هذه ويردني إلى عصمته قبل انتهاء العدة.

تذكرت المثل الدارج في قريتنا والذي قالته والدتي لي ذات مرة "لو كان فيه الخير مكنش راماه الطير"، وتيقنت أن الله لم يفعل سوى الصواب، وحمدت الله أنه لم يفعل ما كنت أفكر فيه بل وأتمناه، ولأول مرة أشكره أني لم أرزق بأطفال منه، ولا يوجد ما يربطني بهذا النذل الذي كشفه الله لي، فغداً سأصبح زوجة لرجل رد لي كرامتي وسيقيم لي فرحاً عكس الخسيس الذي طلّقني ولم يراعي عشرة السنين وتزوج بأخرى وأخذها بجلبابها الأسود في ظلام الليل إلى بيته.

لم أنم طوال هذه الليلة من كثرة التفكير فيما قد يحدث غداً، وما قد يحدث لي في حياتي الجديدة، وكيف ستكون طباع شريف، وهل بالفعل يحبني لشخصي أم لجمالي ولون عيوني الذي تيقنت الآن أنه لم يكن نعمة من الله وإنما نقمة منه، وظللت مستيقظة تدور في رأسي الهواجس والتساؤلات حتى الصباح، قمت وجهزت بعض احتياجاتي وأغلقت حقيبتي الأخيرة التي وضعت فيها بعض متعلقاتي الشخصية الخاصة جداً، بعدما أرسل والدي الأجهزة الكهربائية وباقي المتعلقات لشقة شريف الجديدة بالهرم قبل أيام قليلة، وذهبت إلى الكوافير، وانتظرت حتى جاء العريس وأخذني إلى الاستوديو لنلتقط صور الزفاف، ومنه إلى القاعة التي اكتظت بالمدعوين.

دخلت القاعة وأنا خائفة بل مرعوبة وكأنني فتاة بكر لم يسبق لها الزواج، تعلقت بشدة في ذراع شريف الذي يبدو أنه شعر بما أنا فيه

من خوف وقلق، فاستدار لي وقبلني في جبيني بين وجنتي، ثم سحب يدي من ذراعه وقبلها أمام الناس، لتتساقط دموعي دون إرادة مني.

سعادة غريبة وإحساس بالنشوة ملأ قلبي وأنا أجلس على منضدة في وسط القاعة وبجواري شريف من الناحية اليسرى، ووالدي من الناحية اليمنى والمأذون أمامي، وأهل بلدتنا بأكملها حولي يشهدون على عقد قراني، ليبدأ الفرح وتقدم الفرقة الغنائية فقراتها واستعراضاتها التي استمرت حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

انتهى الفرح وأنا لا أصدق حتى الآن أنني من كانت تجلس في الكوشة ورأسها مرفوعة إلى السماء، ولكم أن تتخيلوا أنني لم أشعر بهذه الفرحة وتلك السعادة في حفل زفافي الأول، بل أنني قارنت وأنا أجلس بجوار العريس بين شكلي الآن وقبل ست سنوات، فقد كنت وقتها طفلة صغيرة لم تكمل الستة عشر عام، وكانت فرحتي في ارتداء الفستان الأبيض أكبر من أي شيء آخر، أما الآن ففرحتي برد كرامتي تساوي الدنيا وما فيها، ثم أن هناك اختلاف آخر فشريف له طعم آخر، شكله ومظهره.. طريقته في المشي.. أسلوبه في الحديث، نظرات عينيه، ضحكته الأخاذة، ويكفي إخباركم أنني كنت أشعر بأن كل الموجودين في الفرح سيخطفونه بأعينهم.

تحركنا من شبين القناطر بزفة سيارات كبيرة من أقاربنا وأشقائي وأصدقاء العريس إلى شقته التي تسكن والدته في إحدى غرفها، وما إن دخلت حتى أجلسني وقال لي دعينا نتفق على بعض الأمور أولها هو أن تراعي والدتي وتتقي الله فيها فهي سيدة كبيرة مسنة ومريضة وليس لها أحد في هذه الدنيا سواي، كما أنها طيبة وبينها وبين الله عمار كبير يعني أن دعوة منها قد تغير مجرى حياتك، وثانيها أن نكون صديقين قبل أن نكون زوجين، بمعنى أن يتسع صدرك لي عندما أحكي عما يضايقني أو يزعجني ولا تجعليني أندم في يوم على أن حكيت لك عن أسراري وما يدور في ذهني أو ما فعلته من أخطاء أو ذنوب.

لم أعلق على موضوع والدته، فالبتأكيد سأعاملها معاملة حسنة أولاً وقبل أي شيء حتى أنول رضا الله عني، وثانياً لأنها في الأساس زوجة خالي رحمه الله، وثالثاً أنها أم الرجل الشهم الذي أحبني في صمت لسنوات وظل لسنوات أخرى راهباً بسببي وتزوجني بعد طلاقي ورفع رأسي أمام الجميع، ولكن ما توقفت عنده هو الشق الثاني من كلامه الذي وجدته كبيراً عليّ وعلى فهمي، فأنا لم أعتد على أن أكون صديقة زوجي، فالمعروف لدينا وما كبرنا ونشأنا عليه أن الزوجة زوجة تطبخ وتمسح وتغسل ملابس زوجها وتعتني بأطفالها وتعلمهم،

ولكن أن تكون صديقته وتتكلم وتحكي معه فهذا هو الجديد الذي لا يوجد سوى في الأفلام الأجنبية.

دارت في رأسي تساؤلات كثيرة وتخيلات عديدة، تُرى هل يريدني فعلاً أن أكون صديقته أم أن "دونجوان" الجامعة القديم يمهد لي الطريق لخيانته وجعلي أتقبل أي فعل يقدم عليه؟!، ولكني لم أشأ أن أستبق الأمور فكل شيء سيظهر في وقته، وساعتها سيكون لكل مقال مقام.

مرت الأيام وبدأت أرى في شريف شخصاً آخر غير الذي كنت أراه أو أسمع عنه، وجدته إنسان طيب مواظب على الصلاة وقراءة القرآن وصلة الأرحام، وسمعت من والدته قصص مواقفه وحكاياته مع أصدقائه والتي تثبت أنه رجلاً حقيقياً في زمن سيطر فيه أشباه الرجال على كل شيء، ولاحظت بنفسي قيمته ومكانته الكبيرة بين أبناء المنطقة، وتدخله لحل مشاكلهم وخلافاتهم لوجه الله دون أن يحصل من أي شخص منهم على مليم واحد، بل إنه كثيراً ما يدفع من جيبه الخاص لحل بعض تلك المشاكل، ووجدتني أقول لنفسي هل كنت عمياء لكي لا أرى كل هذه الرجولة من قبل.

فوجئت به ذات يوم يسألني عن شهادة الدبلوم الخاصة بي، فقلت له إنها في بيت والدي، فطالبني بإحضارها عندما أزورهم يوم الجمعة القادمة، لم أهتم كثيراً بالأمر، ولكني لم أكن أتوقع أنه سيأخذها

ليقدم لي في التعليم المفتوح بجامعة القاهرة، فهذا الأمر لم يخطر ببالي أبداً، ولو أنكم تتذكرون فقد كان أقصى طموحي أن ألتحق بمعهد فني تجاري عقب حصولي على شهادة الدبلوم، ولا أنكر فرحتي وسعادتي بفعلته هذه والتي زادت من قدري وارتفاع مكانتي أمام أهلي وأقاربي بعدما أخبرتهم أنني سأدخل الجامعة لاستكمال تعليمي.

استمرت الحياة بيننا، وأشهد الله أنه كان الزوج المثالي الطيب الحنون المحب بل العاشق الذي يفعل كل ما في وسعه لكي يرضيني ويسعدني، وأنا أيضاً لم أقصر في حقه وفي حق والدته المريضة التي كنت أخدمها بقلبي قبل يدي وجسمي، أرتب لها غرفتها وأغسل ملابسها وأنشرها ثم أقوم بكيها وتطبيقها في دولابها الخاص، وأضع اللقمة في فمها قبل أن تمتد يدي عليها لنفسي، وهو ما جعلها تحبني وتدعي لي بأن يسترني الله وأن يراضيني في الدنيا والآخرة.

زاد مرض حماتي وزادت خدمتي لها، فكنت أقوم بتحميمها بنفسي ثم أجلسها أمامي وأصفف لها شعرها، وكثيراً ما حملت الإناء الذي تقضي فيه حاجتها إلى الحمام، بعدما عجزت عن الذهاب إليه بسبب المرض، ولم أتكبر أو أشعر بأي إهانة في ذلك، فقد أحببتها وكأنها أمي، لدرجة أنني كنت أنام على الأرض تحت قدمها التي قبّلتها لها بعد أن بكت ذات مرة ودعت على نفسها بالموت لكي ترتاح وتريحنا مما هي فيه.

شهور طويلة وأنا أخدم حماتي.. لم أكل أو أتعب، ولم أشتكي مرة منها أو من خدمتها، بالعكس كنت سعيدة جداً بها بدعواتها لي والتي يملؤها الصدق، وحكاياتها الجميلة التي كانت تحكيها لي وقت أن تكون خالية البال، والتي تنم فعلاً عن أنها سيدة طيبة بينها وبين الله عمار، كما قال لي زوجي ليلة الدخلة.

وحدث أن شعرت يوماً ببعض الآلام في بطني، ولكني لم أعر للأمر أي اهتمام فلدي ما هو أهم من مجرد "شوية مغص"، فخدمة ماما الحاجة والدة شريف، وأعمال البيت من أكل ونظافة وغسيل، ومذاكرة محاضراتي في كلية التجارة، كلها أمور أهم بكثير من التركيز في ألم المعدة الذي بالتأكيد سيذهب بكوب ينسون ساخن، أو إن تأزم الأمر فبقرص "فلاجيل" يطهر المعدة، ولكن حدث أن زاد الوجع لأقع على الأرض مغشياً عليّ ويتم نقلي للمستشفى.

- مبروك المدام حامل

(٦)

أعرف أنكم تقولون عني أني شخص "ملاوع" وأني لم أحمد على النعم الكثيرة التي وهبني إياها، الغنى بعد الفقر، والشبع بعد الجوع، والعز بعد الذل والمهانة، ولكني لست كذلك، فأنا أحمد الله وأشكر فضله ليل نهار، ولكن كما ذكرت لكم من قبل مازلت أشعر بالنقص وبأني لم أشبع بعد، وهذا الشعور عافاكم الله منه، يجعل الواحد منا يفكر ويشرع في عمل أشياء كثير منها حلال وبالتأكيد بعضها حرام، ولكن رجائي في هذا أن الله غفور رحيم وأنه يعلم كم الحرمان الذي عانيته في طفولتي، والظلم والقهر الذي تعرضت له بداية حياتي، بالتأكيد أنه سيسامحني ويغفر لي ذلاتي وأخطائي.

في السنوات الأولى لعملي في منطقة الأهرامات، كنت شاباً يافعاً، صحيح أن الفقر والجوع قد جعلا مني شخصاً نحيفاً، إلا أن سماري كان أخاذاً لدرجة إعجاب السياح الأجانب بي رجالاً ونساءً، ولن أخفي عليكم نبأ تعرضي لعدد كبير من المحاولات منهم لإقامة علاقات جنسية معهم، ولكني كنت أرفض رفضاً قاطعاً بالنسبة للرجال، فلم ولن أقبل أن أكون شاذاً وأقبل على فعل تهتز له السموات مهما كانت الإغراءات ومهما دفعوا لي من أموال مقابل فعل هذا الجرم، أما

بالنسبة للفتيات فكثيراً ما كنت أضعف أمامهن وأمام الدولارات التي كانوا يغدقونها عليّ.

أتذكر أول مرة ضعفت فيها مع فتاة أجنبية كانت سيدة أربعينية من انجلترا، حضرت ضمن فوج سياحي واستأجرت الجمل وطلبت مني أن أطيل المدة وأن اصطحبها في الصحراء بعيداً لاستكشاف المنطقة، وعندما ابتعدنا عن الأهرامات وفي المنطقة الصحراوية المجاورة، وجدتها تطلب مني أن أقوم بإنزالها، فأوقفت الجمل وأمسكت الحبل وأشرت له بالعصا التي أحملها بأن يخنع ويجلس في الأرض، وما إن نزلت حتى وجدتها تقترب مني وتملّس على شعري الأكرت، ثم بدأت تقول كلمات باللغة الإنجليزية لم أفهمها ولكني فهمت معناها خاصة بعدما امتدت يدها لتلامس مناطق حساسة في جسدي، وقتها ابتعدت عنها لأجدها تضع يدها في حقيبتها الصغيرة وتخرج منها ورقة بمائة دولار قامت ببلها بلسانها ثم وضعتها بين نهديها البارزين أسفل ملابسها القصيرة التي تكشف عن كل جسمها تقريبا.

تملكني الخوف والرغبة في آن واحد، الخوف من أن تحضر شرطة السياحة ووقتها سيقبضون عليّ ويلقونني وراء عين الشمس، ورغبة في التجربة وتذوق هذا العسل، لتنهي المرأة تفكيري بسرعة لم أتخيلها، بعدما خلعت عنها حمالة الصدر التي كانت ترتديها، وقتها لم أشعر بأي شيء سوى أني أخلع ملابسي بأقصى سرعة، وأهجم عليها

لأقبلها في كل مكان تستطيع شفاهي أن تصل إليه، قبل أن تقوم هي وتنزع عنها باقي ملابسها وتلقي بي على الأرض، لتكون فوقي وأمارس الجنس معها لأول مرة في حياتي.

تكررت علاقاتي الجنسية بنساء الأجانب، في أماكن مختلفة، وبطرق وأساليب مختلفة، وبمقابل مختلف أيضاً، فهذه تعطيني مائة أو مائتين دولار، وهذه تعطيني هاتفها المحمول، وتلك لا تعطيني أي أموال، فقط تدعوني إلى غرفتها بالفندق وتقدم لي ما لذ وطاب من المأكولات والخمور، وأصبحت خبيراً في الجنس وفي مضاجعة النساء، وتعلمت طرقاً وأساليب جديدة ليست في المعاشرة الجنسية فقط، وإنما في كيفية ابتزازهم وجعلهم يدفعون أكثر من المائة دولار، لدرجة أنني أوصلت أجنبية مرة لأن تدفع ألفين دولار مقابل نومي معها.

استمرت حالتي هكذا لبضعة شهور، أو ربما لعدة سنوات لا أذكر، إلى أن جاء يوم وشعرت بالاشمئزاز من نفسي ومما أفعله، وأحسست لثاني مرة بأنني خِرتي رخيص وأني أبيع نفسي وجسدي لمن تدفع أكثر، فقررت أن أتوقف عن مضاجعة النساء إلا من تحلو لي فقط.

قلّت علاقاتي الجنسية بالسائحات الأجانب، وبدأت أرفض كل المغريات اللاتي كن يقدمنها لي، وأذكر أنه كان يمر عليّ أسابيع بل شهور كاملة ولا ألمس فيها فتاة واحدة، واستثمرت اللغة الأجنبية التي

تعلمتها، والمصطلحات التي برعت في نطقها، وبدأت ألقي شباكي على من تعجبني من الفتيات اللاتي يعشقن سمار بشرتي وشعري الاسود المجعد وطولي الفارع، إلى أن كرهت كل النساء وفقدت الثقة فيهن جميعاً، فطوال سنوات عملي في الأهرامات لم ترفض واحدة منهن إقامة علاقة جنسية معي، كلهن رخيصات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية لا يفرقن عن بعضهن شيئاً، كلهن يعشقن الجنس ولا يمانعن في النوم مع أي رجل المهم هو أن يلبي رغباتها ويصعد بها إلى سماء المتعة والنشوة.

عاتبت نفسي لأني أهنتها وقللت منها، فقديماً كنت أتحمل الضرب والذل والمهانة لأنني كنت فقيراً وأحتاج للنقود حتى أكل وأرتدي ملابس تحميني من كشف عورتي، أما الآن فأنا أبيع عورتي لمن تدفع أكثر، وكان الحل في الزواج الذي قالت لي والدتي أنه سيحميني مما أراه من الأجانب، ولكن من هي العروسة، وكيف ستكون أخلاقها، وهل سمحت لشخص قبلي بأن يلامس جسدها، ويقطف عسل شفاها، وينام على صدرها، ربما جامعها من الخلف كي لا ينكشف أمرها، أو ربما اكتفى باللعب في نهديها وأفضى شهوته عليهما.. ألم أقل لكم أنني فقدت الثقة في جميع النساء، وكان الحل في الزواج من قريتنا، ففتيات الفلاحين مازالوا بخير، ولم تصل لهم يد الانفتاح والمسخرة.

طلبت من والدتي أن تختار لي فتاة من قريتنا، ولم يكن لدي أي مواصفات خاصة كالطول أو اللون أو الثراء أو ما إلى ذلك، فقط طلبت من والدتي أن تكون محترمة وليس لها في اللف والدوران، وهكذا تزوجت وأنجبت الأربع فتيات الذين حكيت لكم عنهم من قبل، وأشهد الله أني من وقتها لم أقم أي علاقة جنسية مع أي سائحة إلا مرتين أو ثلاثة على الأكثر وفي ظروف معينة لا داعي لذكرها، وكنت أتوب بعدها واستغفر الله وادعوه أن يحميني منهم ومن إغراءهم وأن يعينني على الشيطان الرجيم الذي يحبب لي الحرام ويجعلني اشتهي نساء الأجانب هذه بسبب طولها، وتلك لأن جسمها فرنساوي، والأخرى لأن حجم ثدييها كبير.

بعد تفكير طويل في الأمر وخوفي من الحرام ومن أن كما تدين تُدان، وجدت أن الحل النهائي لهذه المشكلة، هو ترك هذا العمل الذي يجعلني عُرضه لضعف النفس، والبحث عن بديل آخر يحقق نفس المكسب الذي أحصل عليه الآن، والذي رتبت حياتي عليه، ولكن ماذا سأفعل، وربما سيقول أحدكم أن لدي أكثر من عمارة أقوم ببنائها وبيعها والدخل الذي يأتيني منها يكفي وزيادة، وهذا صحيح ولكنها فلوس تأتي على الجاهز كما يقولون، وأنا أريد أن أعمل وأتعب، فمن اعتاد مثلي على العمل منذ طفولته لا يمكنه أن يجلس وهو في عز

شبابه بالبيت يأكل ويشرب وينام، حتى ولو كانت النقود ستأتيه على وحدها.

وحدث ما لم أكن أتوقعه، فقبل أيام قليلة وأثناء عودتي بالجمل إلى البيت الذي قمت ببنائه لأجمع فيه العائلة، وجعلت الدور الأرضي حظيرة تتسع لعدد من الجمال والخيول التي تعمل جميعها في الأهرامات، التقيت أحد جيراني في النزلة، والذي ما إن رآني حتى سلم عليّ بحرارة غريبة لم أعهدها منه، ورجاني أن أمر عليه في منزله بعد صلاة العشاء لأنه يريدني في أمر هام، وهو الطلب الذي استغربت منه لأن جاري هذا لم يكن بيننا المودة والألفة التي تجعله يدعوني لزيارته في بيته، فأنا أسكن هنا منذ سنوات طويلة، وطوال هذه السنين لم يكن بيننا سوى صباح الخير ومساء النور فقط، وكما تعلمون أن الحياة في القاهرة تسير بمنطق "صاحبي وصاحبك على القهوة" فالبيوت لها حرمتها ولا يتم استضافة أي شخص فيها إلا المقربون فقط.. تُرى ما الأمر؟.

وصلت منزلنا، وربطت الجمل، واطمئننت على باقي الحيوانات، ووضعت لهم العشاء بنفسي، ثم صعدت إلى شقتي في الطابق الأول واستحممت وغيّرت ملابسي، ثم ذهبت إليه، ودخلت بيته لأول مرة، بيت قديم متهالك، من دورين، ووجدته يسألني هل تناولت طعام العشاء أم تقوم زوجته بتحضيره، فأخبرته أنني لا أتناول وجبة

العشاء إلا مع بناتي، وطلبت منه أن يكتفوا بكوب شاي سكر زيادة وكوب من الماء البارد.

بعد الترحيب والسلام دخلت ابنته بالشاي، ثم خرجت فأغلق الباب، وأحكم غلقه، وبدأ يتحدث عن غلاء المعيشة وأولاده الذين يدرسون في مراحل التعليم المختلفة، وكبيرهم سيدخل الجامعة هذا العام، وزوجته المريضة التي أصابها داء الفيل في قدمها ولم تعد قادرة على المشي أو حتى دخول الحمام، ساعتها ورد في رأسي خاطرين لا ثالث لهما، الأول إما أنه يريد أن يقترض مني مبلغاً من المال، والثاني أن يعرض عليّ شراء المنزل، ودخلت في حيرة من أمري، ولم أعرف بماذا سأرد عليه إن كان ما توقعته صحيحاً، غير أنه فاجئني بأمر ثالث مختلف تماماً ولم يدر ببالي إطلاقاً.

- من كام يوم بكسّر الحمام البلدي عشان نركب واحد افرنجي لقيت مسخوط صغير من الحجر الاسود.. وبما انك شغال في السياحة وراجل محترم وأمين فكنت عايزك تصرفهولي واهو نسترزق انا وانت.

صُدمت من صراحة الرجل المبالغ فيها، فكيف يستأمنني على هذا الأمر الذي من المفترض أنه سر كبير.. ألا يخشى أن أبلغ عنه، ثم من أدراه أني سأوافق، والأصعب من ذلك هل سأتمكن من تصريف هذه القطعة، وهذا هو الأهم.

أحسست أن عرض الرجل في هذا التوقيت هو دعوة من الله لي بأن أبتعد عن السائحات والعلاقات المحرمة معهن، وجلست أفكر فيمن يستطيع تصريف هذا المسخوط، فأنا رغم كل تلك السنوات التي قضيتها في منطقة الأهرامات وفي العمل مع السياح، لا يوجد لدي أصدقاء من النوع الثقيل، فكلهم مجرد معارف وزبائن طياري، من هؤلاء الذين يأتون لركوب الجمال أو الخيول في الأهرامات، وبعد بحث وتفكير طويل لم أجد أمامي سوى صديقي الأستاذ شريف المحامي الذي تعرفت عليه قبل سنوات عندما حضر وهو مازال طالباً في كلية الحقوق مع إحدى زميلاته في الجامعة لقضاء وقت لطيف في الأهرامات، تعرفنا على بعضنا البعض ودبت صداقة قوية بيننا مازالت مستمرة حتى اليوم.

الآن عرفتم لماذا اخترت شريف بالذات لأحكي له وليساعدني في هذه الصفقة، أولاً لأنه صديقي وبالتالي لن يخدعني أو يبيعني وسيخدمني، وثانياً لن يبلغ عني أو يسلمني للشرطة إذا لا قدر الله وحدثت في الأمور أمور، وثالثاً لأنني أعرف ظروفه المادية جيداً وأريد أن أوسع عليه وأن ينوله من الحب جانباً، ولكني فوجئت به يرفض الموضوع بل ويهددني بالإبلاغ عني، والحقيقة أن رفضه هذا جعلني أفوق مما أنا فيه وأتذكر العهد الذي قطعته على نفسي بأن أبتعد عن الحرام

وأن أحافظ على الحلال حتى يبارك الله لي في مالي وبناتي، إذ كيف أتوب عن مضاجعة النساء وأشرع في تهريب الآثار.

وعلى ذكر موضوع بناتي الأربعة، فلازلت تائهاً حتى الآن حيران لا أعرف كيف أتصرف، فكما سبق وقلت لكم ليس لدي مشكلة في إنجاب الفتيات، ولكني أبحث عن الولد الذي سيحمل اسمي، وحيرتي سببها هي الزوجة الجديدة من تكون، وهل ستنجب الولد أم ستكون مثل القديمة وتأتي لي بالبنت الخامسة، والسؤال الأصعب هل سأخبر أم البنات أنني سأتزوج عليها أم سأتمم زواجي في السر.

تعبت من كثرة التفكير والحيرة التي سيطرت عليّ، واتجهت لمسجد سيدنا الحسين أصلي فيه الجمعة لأول مرة منذ قدومي للقاهرة، ذهبت أشكو له ما أنا فيه وأرمي حمولي عليه، وانتهت الصلاة وذهب المصلين ودخلت المقام وأنا حزين تائه متردد لا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل، ووجهت وجهي إلى السماء ورفعت يدي لرب السموات والأرض ودعوته

- يارب انت أعلم بالحال وليس لي سواك.. نوّر لي طريقي وحلها من عندك يارب.. يارب أنا عايز اتوب وابقى بني آدم نضيف بس مش عارف ازاي.. يارب انا تعبت من الحرام ومن الوساخة اللي انا عايش فيها ونفسي انضف.. يارب ساعدني

(٧)

الصدمة كبيرة بالنسبة لي ولم أتوقعها، فلك أن تتخيل أنني وبعد كل هذا الجهد والعناء الذي بذلته لكي أقنع نفسي وأنيم ضميري وأجد المبرر الأخلاقي للاشتراك في صفقة بيع الآثار، التي وجدتني مضطراً لها، وبعد المجهود الكبير في البحث بين معارفي وزبائني عن وسيط، أذهب إلى عصام لأفاجئ به يقول أنه تراجع عن الصفقة ولن يشترك في أي شيء حرام.

الآن قرر أن يتوب بعدما عشمني بالصفقة التي ستغير حياتي وبنيت عليها أحلامي وآمالي!، الآن قرر أن يعيش بالحلال ويبتعد عن الحرام بعدما غيّرت من مبادئي وبدلت قناعاتي!، يجب أن يكون في الموضوع إنّ، فلا يمكن أن يتحول حماس شخص لمشروع سيربحه الملايين إلى هذا الفتور الذي رأيت فيه عصام عندما زرته في البيت، بالتأكيد أنه خاف مني عندما هددته بإبلاغ الشرطة عنه، ربما بحث عن وسيط غيري يتمم له الصفقة، بالتأكيد وجد هذا الوسيط وسيتمم الصفقة بدوني.

لا أنكر أن منظره وهو يجلس معي كان غريباً.. ليس منظره فقط وإنما ملامح وجهه، حركات يده، هيئته كلها وطريقة كلامه.. كلها كانت

غريبة، جلس يحدثني عن الحلال والحرام، وعن البركة في الرزق، لدرجة جعلتني أشعر أن من تتكلم هي زوجتي سماح وليس عصام الغارق في كل أنواع الحرام، وللأمانة كنت أظن كما سبق وقلت لك أنه إما خائف مني أو وجد بديلاً لي، ولكني فوجئت به يحكي لي عن زيارته لمقام سيدنا الحسين وكيف تبدل حاله بعد أن قضى يوم الجمعة كله هناك يصلّي ويدعي الله بالهداية وبإنارة طريقه، وكيف تغيرت حياته من وقتها لدرجة أنه أقلع عن فكرة زواجه الثاني أملاً في إنجاب الولد، وسيعيش حياته يرعى الله في بناته ويعلمهم ويصل بهم لأعلى المستويات.

اقلاع عصام عن فكرة الزواج الثاني كانت أغرب بالنسبة لي من الإقلاع عن فكرة تجارة الآثار، لأني أعرف أن الصعايدة والفلاحين حتى وإن قدموا للقاهرة وعاشوا فيها مثلي فيظل حلمهم بالمولود الذكر هو الهاجس الأكبر في حياتهم بسبب معتقدات العزوة واسم العائلة الذي لابد أن يعيش وغيرها، ولكنه كان صادقاً، لمحت هذا الصدق في عينيه التي أغرورقت بالدموع وهو يعترف لي بندمه على كل ما اقترف في حياته من ذنوب وآثام وبخاصة علاقاته النسائية مع السائحات الأجنبيات، قبل أن تبتل خدوده بالدموع وهو يسألني هل يمكن أن يرد الله له ما فعله مع بنات الناس في بناته الأربعة.

كلماته عن عقاب الله ورد ما فعله مع السائحات في بناته أوجعتني، وأشعرتني بأنه أتى بسوطه الذي يضرب به الخيول والجمال وضربني به ضربة موجعة أفاقتني مما أنا فيه، ووجدتني أنسى حزني لضياع الصفقة، وأحاول التخفيف عنه، وذكرته بأن الأصل في الموضوع التربية وطالما أنه سيربي بناته على التدين والاحترام فلن يقعوا فريسة لأحد، وطالما تاب لله توبة نصوحاً وعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى فسينجيه الله ويغفر له، وبكائه خير دليل على ذلك.

كلام عصام لم ينيمني هذه الليلة، وظللت أفكر فيه وفي معانيه الكثيرة، ولا أخفي عليكم سراً أنه زادني حيرة على حيرتي، فأنا بالتأكيد أبحث عن مال إضافي ولكن في نفس الوقت لا أريد أن أطعم أطفالي من مال حرام، وإذا كان عصام الغير متعلم يخاف على بناته من المستقبل ومن رد المظالم فيهن، فكيف لي وأنا المتعلم لا أخاف على أولادي ولا أتق الله فيهم، وصحوت من تفكيري على صوت التليفون يرن، وكنا وقت الفجر، وكان شقيق زوجتي على الناحية الأخرى.. ترى ما سر اتصاله في هذا الوقت المتأخر لابد وأن هناك أمر خطير قد حدث.

ما توقعته كان صحيحاً، توفى والد سماح في وقت متأخر من الليل، وانتظروا حتى يؤذن لصلاة الفجر لكي يخبرونني.. سماح نائمة ولا يمكن أن أوقظها في هذا التوقيت لأقول لها أن والدها مات، فمن

الممكن أن يحدث لها شيء.. تقلبت في السرير وتعمدت ملامستها وربما ضربها بشكل يبدو وكأنني لا أقصد حتى قامت من نومها وسألتني عن سبب قلقي، فطلبت منها أن تقوم وتعد لي كوباً من الشاي وتأتي لنتحدث، فاستغربت طلبي وسألتني عن الساعة فقلت لها إنهم أقاموا صلاة الفجر قبل قليل، فقامت لتوها وهي قلقة وسألتني هل بي شيء أو حدث مكروها للأولاد أو لأحد من العائلة، ولكني هدأت من روعها وكررت طلبي بأن تحضر لي كوب الشاي، وبعد أن عادت أخبرتها أن والدها يشعر ببعض الألم في صدره وتم نقله إلى المستشفى، ويجب أن نذهب لزيارته.

سيطرت على سماح حالة من الهلع والخوف والقلق على والدها، فكما تعلمون أن البنت حبيبة والدها وسماح لم تكن حبيبته فقط بل كانت كل حياته، مستودع ذكرياته وخزانة أسراره.. أمه التي ولدها، المهم أني هدّأت من روعها وطلبت منها أن ترتدي ملابسها فسنذهب للمستشفى للاطمئنان عليه.

أيقظنا الأطفال وانطلقنا إلى شبين، وفي الطريق ظلت تسألني وتستحلفني بالله أن أخبرها بحقيقة مرض والدها، فكنت ابتسم وأقل لها أن عمر الشقي بقي وأن والدها كان ومازال شقياً كبيراً، إلى أن وصلنا إلى الشارع ووجدت الكراسي منصوبة أمام البيت وعدد كبير من الرجال يجلسون عليها، فتأكدت أني كذبت عليها، فظلت

تبكي وتنتحب وما إن نزلت من باب السيارة حتى أطلقت صوتاً عالياً مليئاً بالحزن والانهيار لتسقط مغشياً عليها.

انشغلت بوفاة والد سماح الذي كنت أعده في منزلة والدي، وكثيراً ما استشرته في أموري الخاصة، وكثيراً ما كان ينصرني على ابنته ويقف إلى جانبي عندما تحدث أي مشكلة بيني وبين ابنته، حزنت عليه وتساقطت دموعي، وظللت خلال الثلاثة أيام المخصصة للعزاء أتذكره وأتذكر مواقفه معي، ومع كل موقف أدعوا الله له بالرحمة والمغفرة.

جاء عصام إلى شبين مع عدد كبير من أهالي المنطقة لتقديم واجب العزاء، فكما تعرفون أنا شخصية عامة ولدي واجبات كثيرة عند كل أهالي المنطقة، لم يفتح مجالاً للحديث في أي موضوع، ولم ينبت بكلمة طوال مدة بقائه في العزاء، ليحدفني قبل أن يقوم بكلمة أصابت قلبي

- كله بيروح يا متر ومحدش بياخد معاه أي حاجة وهو ماشي

أسررت كلمة عصام في قلبي، ولم أحاول أن أفكر فيها، فالوقت ليس مناسباً، فلدي مهمة ثقيلة وهي التخفيف عن سماح وعدم إشعارها بأي نقص بعد فقدان والدها، إلى أن حدثت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها ولم ترد في بالي مرة، فبينما نحن في بيت العائلة نحضر ذكرى

الخميس الكبير، فوجئت بأشقاء سماح يطلبون مني كوني محامي المرحوم والعائلة كلها، عمل إعلام وراثة لتقسيم التركة الكبيرة التي تركها والدهم والتي هي عبارة عن البيت الكبير وقطعة أرض مباني على الطريق الرئيسي تساوي عدة ملايين، وعدد من الأراضي الزراعية يتعدى ثمنها المليون جنيه أيضاً.

تخيلوا أنني لم يخطر ببالي إطلاقاً موضوع الميراث الذي ستحصل عليه سماح، فرغم معرفتي بأن حالة والدها المادية جيدة جداً، إلا أنني لم أفكر في ذلك، أعرف أن أحدكم سيقول الآن أن طاقة القدر قد فتحت لي، وأنني سأستغل نصيب سماح في الميراث والذي يصل لملايين الجنيهات، وسأرد على من يقول هذا بأنه بالتأكيد لا يعرفني ولا يعرف أخلاقي وتربيتي التي تمنعني من الحصول على أي شيء من زوجتي، فلست من الرجال الذين يعيشون على أموال زوجاتهم، حتى أيام الجامعة لم أكن أسمح لأي فتاة من شلتنا أن تمد يدها في جيبها لتدفع نصيبها في الأكل أو المواصلات.. فالرجولة لا تباع ولا تشترى.

وسأحكي لكم في عجالة قصة أحد زبائن مكتبي والذي جاءني منذ فترة يسألني عن حل لمشكلته بصفتي محامياً، فبعد أن تزوج من فتاة كان أهلها ميسوري الحال، ووفروا عليه تجهيز الشقة التي منحوها لابنتهم لتتزوج فيها ولم يكلفوه شيئاً من أجهزة كهربائية أو مفروشات أو سجاد أو حتى غرفة نوم، فقد كانوا ميسورين الحال والشقة

موجودة في العمارة الخاصة بهم، وتم الزواج سريعاً وبعد أسابيع قليلة وقعت عدة مشاكل بينه وبين زوجته، وبدأت تعايره بما أنفقه أهلها عليه، وبأنه لم يدفع فيها أو زيجته مليماً واحداً، ليتطور الأمر وتحدث مشكلة كبيرة، يقوم أشقائها على أثرها بضربه وطرده من الشقة.

أعرف أن سماح ليست كتلك السيدة التي عايرت زوجها، فهي اسم على مسمى، وأعرف جيداً أنها هدية الله لي، كما أني متيقن من أن أشقائها محترمين ولن يتحدثوا معي في أي شيء، فانا ابن خالهم الذي يحبونه ويقدرونه، ولست ضعيف الشخصية ليفعلوا معه مثلما فعل أهل زوجة هذا الزبون، ولكني في نفس الوقت لن أكسر صورتي أمامهم، ولن أضع نفسي موضع لا يليق بي ولا بمكانتي بينهم.

التزمت الحياد وأنا أقوم بتقسيم الميراث، فلم أتعامل مع سماح على أنها زوجتي، وإنما كفرد من أفراد الأسرة التي تريد التقسيم، ولم أتدخل إطلاقاً في علاقتها بأشقائها، فلم أقل لها افعلي كذا أو اطلبي كذا، فكما قلت لكم أنا عفيف النفس، ولكني في نفس الوقت أوصيتها بأن تكون كريمة مع أشقائها وذكرتها بأن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون أهله، فكانت أكثر كرماً مما طلبت.

استلمت سماح نصيبها من الأموال السائلة، ووضعته في حسابها بالبنك الأهلي، واتفقت مع أشقائها أن يقوموا بزراعة نصيبها في الأرض بالمناصفة، أما قطعتي الأرض الموجودتين على الطريق فعرضوها للبيع، ونصيبها في البيت القديم فيظل كما هو لكي تجلس فيه عندما تذهب لزيارتهم في الأعياد أو المناسبات المختلفة.

لا أنكر أن حالتنا المادية تغيرت كثيراً، بعدما قررت سماح أن تساهم في مصروفات البيت، فكثيراً ما كانت تأخذ الأولاد لتشتري لهم ملابس جديدة، وكان ينقصها غسالة أطباق وفرن كهربائي صغير وبعض الأجهزة الأخرى قامت بشرائهم، وفاجأتني أكثر من مرة بهدايا عبارة عن بذات جديدة وغالية وأحذية وكرافتات، ناهيك عن متطلبات البيت الذي لم يعد يخلو من اللحوم والفاكهة والحلويات طوال أيام الأسبوع.

انتهت سماح من تأدية اختبارات الفصل الأخير من دراستها بكلية التجارة، وفاجأتها بإقامة احتفالاً صغيراً لها ضم المقربين من أشقائها الثلاثة وأولادهم وعصام وبناته الأربعة، وأحضرت التورتة والحلويات، وقضينا وقتاً جميلاً، حمدت الله بعده أن رزقني بهذه الزوجة الطيبة، وقضينا ليلتنا نتذكر أيام طفولتنا ولعبنا في شوارع بلدتهم، ويوم زفافنا وبكائها أمام المدعوين، وكيف أن أقاربها جروا عليها بالمناديل ليمسحوا دموعها قبل أن يفسد المكياج.

في الليلة التالية وجدت سماح ترد لي العزومة، فقد أحضرت هي الأخرى تورتة صغيرة من محل "بلاوار" الذي افتتح أحدث فروعه مؤخراً على ناصية شارعنا، وجمعتني أنا والأولاد، وسألتني أمامهم إن كان لدي مانع في أن تعمل ببكالوريس التجارة كمحاسبة، فأخبرتها أن نجاحها هو جزء من نجاحي، وقيمة ومركز اجتماعي اضافي لي ولأولادنا، ضحكت وقالت أنها تعلم ذلك ومتأكدة منه، ثم قالت وهل لديك مانع إن تشاركت معك وافتتحنا سوياً مكتب محاسبة قانونية.

كلمات سماح كانت مفاجأة لي ولم يخطر ببالي هذا الأمر إطلاقاً، وقبل أن أرد، اعطتني عقد تمليك مناصفة بيني وبينها لإحدى الشقق الكائنة على شارع الهرم الرئيسي، وعقد آخر لشركة محاسبة قانونية بنظام المشاركة أيضاً بيني وبينها.

- عشان تعرف إن ربنا كريم وانه مش اقل منك جدعنة عشان تسيب الحرام عشانه وهو ميعوضكش باللي احسن منه.

- تمت –

محمد إبراهيم كعيمة

دهب – جنوب سيناء

١٩ يونيه ٢٠١٩

صدر للمؤلف

- **رجالة الهانم** - رواية - ٢٠١١
- **عفريتة هانم** – قصة حياة الفنانة سامية جمال - ٢٠١٤
- **مولد سيدي البيومي** – متوالية قصصية – ٢٠١٦
- **ريحة الحبايب**.. حكايات إنسانية لنجوم الفن - ٢٠١٩

*****

محمد إبراهيم طعيمة

_ كاتب صحفي وروائي مصري

_ من مواليد محافظة الشرقية

_ بدأ رحلته الصحفية عام ٢٠٠٣، وعمل محرراً صحفياً في عدد كبير من الصحف والمجلات المصرية والعربية منها الدستور، الموجز، روتانا، كل الناس.

_ شارك بكتابة مقالات رأي في عدد من الصحف الكبرى منها المصري اليوم، الفجر، فيتو.

_ صدرت أولى أعماله الأدبية نهاية عام ٢٠١١ وهي رواية "رجالة الهانم"، مع دار جزيرة الورد، والتي حققت نجاحاً كبيراً وقتها، وتم عمل عدة طبعات منها.

_ توالت أعماله الأدبية، فأصدر في في ٢٠١٤ كتاب "عفريتة هانم" عن دار نشر جزيرة الورد، والذي يحكي قصة حياة الفنانة الراحلة سامية جمال.

_ في عام ٢٠١٦ صدرت له متوالية قصصية بعنوان "مولد سيدي البيومي" مع دار نشر أطلس، والتي دارت أحداثها في عالم الصوفية والموالد والأضرحة.

_ في عام ٢٠١٩، عاد لعالم تأريخ قصص حياة الفنانين، فأصدر كتاب "ريحة الحبايب"، مع دار الياسمين للنشر، ودارت أحداثه حول حكايات وقصص إنسانية لنجوم الفن مثل أحمد زكي، جورج سيدهم، سناء يونس، حسين الشربيني.